الدكتور عبد العال سالم مكرم

الفكر الإسلامي بين العقل والوحي

وأثره في مستقبل الإسلام

دار الشروق

الفكر الإسلامي بين العقل والوحي

الطبعة الأولى

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٥١٠١ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN

بسم الله الرحمن الرحيم

الفكر الإسلامي بين العقل والوحي

الإسلام دين شامل يحرص على إصلاح البشرية ، وإسعاد الإنسانية بنشر القيم الفاضلة والمعاني السامية ، والمثل العليا في أرجاء الدنيا ، وفي أنحاء العالم ، وفي كل زمان ومكان . ولا عجب فهو دين الإنسان مهما كان لونه ، ومهما كان جنسه . من شرب من معينه عزّ وساد ومن أعرض عنه فان له معيشة ضنكا « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه »[1] . هـذا الدين الخالد دواء لكل مرض ، ونور لكل ظلام ، وحياة لكل موت ، انه يرقى بالإنسان ليكون خليفة الله في الأرض لينشر البرّ والخير ، ويزرع النور والأمل ، ويغرس التقوى والخلق ويفتح الآفاق أمام هذا الإنسان ليعرف مكانه في الوجود ، ومنزلته في الكون ، وقيمته بين الأحياء . « ولقد كرمنا بني آدم »[2] .

ان لهذا الدين دعامتين : احداهما : العقل ، والأخرى : الوحي . فما العقل ؟ وما الوحي ؟

---

(١) آل عمران ٨٥ .

(٢) الاسراء ٧٠ .

العقـل

احتدم الجدل والنقاش بين العلماء والفلاسفة قديماً وحديثاً حول العقل ، وتساءلوا ما حقيقة هذه الكلمة ؟ وما المعاني التي ترمز إليها ؟ وهل العقل هو العلم أو هو القلب ؟ قضايا أُثيرت في التراث الإسلامي حول وظيفة العقل ، واستمر باب الحوار والنقاش مفتوحاً على مصراعيه حولها. في عصرنا الحاضر ، وحتّى في اللغة نجد هذا الخلاف الدلالي لهذه الكلمة ، ففي «لسان العرب» :

«العقل : الحِجْر والنُّــهي : ضد الحمق . وهو التثبت في الأمور . وهو : القلب . وهو : التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان » [١] .

ولو استمعنا الى الفلاسفة لنعرف رأيهم في معنى العقل رأينا اختلافاً بَيِّناً في هذا المجال ، فأبو بكر بن العربي الفيلسوف ينكــر هذه التسمية لهذه القوة الخفية ويقول إنها : « أسماء لا فائدة تحتها ، وتهويلات لا طائل وراءها ، وذلك أن الأشياء والمدركات تسمى في نظره علما لا عقلا حيث قال تعالى : « ان في ذلك لآية لقوم يعلمون » [٢] كما أطلق عليها عقلا فقال تعالى : « ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » [٣] وبهذا الاعتبار فالعقل عنده هو العلم ، وهو صفة يتأتّى بها درك العلوم [٤] وابن رشد الفيلسوف العربي

---

(١) انظر لسان العرب : « عقل » .
(٢) النّمل ٥٢ .
(٣) الرّعد ٤ .
(٤) آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ١ : ١٤٢ ـ ١٤٣ .

يحتفظ للعقل بتسميته لأنه يرى أن عقل الإنسان ليس في مستوى واحد في إدراكه للأشياء فهناك عقول نافذة تغوص إلى العمق وتضع يدها على الخيوط الدقيقة لتربط الأشياء ، وهناك عقول دون هذا المستوى لأنها تقف في الربط عند الصفات الظاهرة ، والأمور الواضحة . والمستوى العقلي الأقل في نظره من هذين النوعين تلك العقول التي لا تدرك أسرار ربط المدركات الخفية أو الظاهرة وإنما تقف فقط لتستجيب للألفاظ الرنانة ، والأدلة الخطابية الوعظية ، فابن رشد يقسم العقل الإنساني إلى ثلاثة أنواع يقول : « النوع الأول : العقول البرهانية القادرة على متابعة دليل يقيني محكم ، وتصل إلى نتائج بينة ضرورية . وربط هذه الأدلة هو الذي يكوّن الفلسفة ولكن هذا لا يتسنّى إلاّ لقلة من العقول الموهوبة بالقدر الذي يجعلها تكرّس نفسها لها . والنوع الثاني : عقول منطقية تكتفي بالبراهين الجدليّة . أما النوع الثالث فهو العقول التي تستجيب للوعظ ، والأدلة الخطابية ، وهذه غير مهيّأة لاتباع الاستدلال المنظّم . والعقول الأخيرة نجدها عند الناس العاديين وهم السواد الأعظم الذين لا يستجيبون إلاّ للخيال والعاطفة فحسب » (١) .

وفي نظري أن العقل قوة خفية تدرك بها الأشياء ، وهي هبة سماوية نستطيع في ضوئها أن نميز بين الحق والباطل ، بين الخبيث والطيب ، بين النافع والضار ، بين الحسن والقبيح وسواء حملت هذه القوة الخفيّة اسم العقل أو إسم القلب أو إسم العلم .

---

(١) تراث الاسلام لشاخت ترجمة الدكتور حسين مؤنس ٢٠٩ .

نعم انها قوة خفية لا تقع تحت مجهر ، تستطيع أشعتها أن تمتد إلى السماء أو الأرض باحثة عن المعرفة ، لتقف على أسرار الكون ، وخفايا الوجود .

وفي تراثنا العربي رجلان من رجال الأدب والفكر استطاعا أن يضعا حدوداً لهذا العقل قبل أن يعيش في أعماقه فلاسفة العصر الحاضر بما يوضّح أن ما يقال اليوم عن العقل لا يختلف عما قيل في تراثنا العربي والاسلاميّ : أحدهما الجاحظ في رسالته المشهورة « المعاش والمعاد » حيث يقول : « فإنما حُمِدت العلماء بحسن التثبّت في أوائل الأمور واستشفافهم بعقولهم ما تجيء بـه العواقب ، فيعلمون عند استقبالها ما تؤول به الحالات في استدبارها ، وبقدر تفاوتهم في ذلك تستبين فضائلهم ، فأما معرفة الأمور عند تكشفها ، وما يظهر من خفاياها فذاك أمر يعتدل فيه الفاضل والمفضول والعالمون والجاهلون » (١) .

وقـد استلهم كاتبنا المعاصر الدكتور زكي نجيب محمود رأى الجاحظ في تحديد معنى العقل ما نصه : « فأمّا التحديد الذي أريد أن أحدّد به معنى العقل ـ حين استخدم هذه الكلمة في هذا السياق ـ فهو الحركة التي أنتقل بها من شاهد إلى مشهود عليه ، ومن دليل إلى مدلول عليه ، من مقدمة إلى نتيجة تترتّب عليها ، من وسيلة إلى غاية تؤدي إليها تلك الوسيلة ، وأهم كلمة في هذا التحديد هي كلمة « حركة » فإذا لم يكن انتقال من خطوة إلى خطوة تتبعها فلا عقل ، إذا أدركت شيئاً دون أن تنتقل من هذه الحالة الادراكية

---

(١) رسائل الجاحظ ١ : ٩٥ تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون .

إلى حالة تليها ، وتتوقفُ عليها فلا عقل ، إذا حملقت ببصري في ثمرة صفراء فلا أجاوز منها إلاّ أنها شيء أصفر فلا عقل ، وإنما يكون العقل إذا انتقلت من رؤية تلك الكرة الصفراء إلى العلم بأنها شيء يؤكل» .... إلى أن يقول : « واختصاراً فإن حدّ العقل هو أن ينتقل الإنسان من معلوم إلى مجهول ومن شاهد إلى غائب ، ومن ظاهر إلى خفي خبيء ، من حاضر إلى مستقبل لم يحضر بعد أمام البصر أو إلى ماض ذهب وانقضى ولم يعد مرئياً مشهوداً ، ومن ثمّ كان العقل هو الذي يتعقب الحدث إلى أسبابه أو إلى نتائجه . في الحالة الأولى يكرّر راجعاً من الحدث الظاهر إلى علة حدوثه وقد اختفت ، وفي الحالة الثانية يتشوف المستقبل قبل حدوثه مرتكزاً في ذلك على الحدث الماثل في لحظته الراهنة . وأما أن نرى الشيء وقد انكشف وتجلى فلا عقل في ذاك بل لا فرق فيه بين عاقل ومخبول » (١) .
وثانيهما الأديب المفكر ابنُ عبدِ رَبِّه فقد عرف العقل بقوله : «العقل مُتَقَبِّلٌ للعلم لا يعمل في غير ذلك شيئاً» .

وقد أعجبت هذه العبارة الكاتب الدكتور زكي نجيب محمود كما أعجبته من قبل عبارة الجاحظ ، فيقول معبّراً عن إعجابه : « انظر ! العقل لا يولِّد العلم من جوفه كما يولِّد العنكبوت خيوطه من معدته وأمعائه بل إنه يتقبل حصيلته من الخارج من الدنيا بكائناتها الحيّة والجامدة ، من معطيات الحواس سمعاً وبصراً ولمساً » إلى أن يقول : « العقل مقيد بالمشاهدة والتجارب ، مقيد بالواقع المحسوس ، مقيد بالظواهر ، وانه ليكفر برسالته وبوظيفته إذا

---

(١) تجديد الفكر العربي : زكي نجيب محمود ٣١٠ ـ ٣١١ .

هو مزّق هذه القيود ليشطح بلا قيود ولا حدود » [١] .

على أية حال كانت ، فإن تفسير القدماء والمعاصرين من رجالات الفكر الإسلامي متقاربة وكلها تدور حول معنى واحد هو وظيفة هذا العقل ، وليس لنا أن نتساءل بما يعجز عنه العقل ، فنقول : ما العقل ؟ انه سر وقف فيه أصحاب العقول حائرين كما وقفت إزاء الروح التي تملأ الكون حركة فزاد عجزها وصدق الله العظيم «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » [٢] وما يقال عن الروح يقال عن العقل لأنه من أمر الله ، وليس للعقل الذي فينا أن يتطاول إلى غير مداه .

وكل الذي يهمنا نحن البشر أن نلمس آثار هذا العقل في حياتنا في ميادين العلم والمعرفة والسلوك والأخلاق والبحث في هذا الكون العريض لنركع في خشوع أمام مبدعه . « صنع الله الذي اتقن كل شيء » [٣] وقد أصاب المِحَزَّ الامام أبو بكر محمد بن زكريا الرازي في كتابه الطب الروحاني حينما عدّد لنا منافع هذا العقل ، ودلّنا على منابعه التي نستطيع أن نرتوي منها فنعرف أسرار كثير من هذا الوجود العظيم . قال : « ان الباري عزّ اسمه إنما أعطانا العقل وحبانا به لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة غاية ما في جوهر مثلنا نيله وبلوغه . وانه أعظم نعم الله عندنا ، وأنفع الأشياء لنا ، وأجداها علينا ....

(١) المرجع نفسه ٣٣٥ .
(٢) الاسراء ٨٥ .
(٣) النمل ٨٨ .

فبالعقل فضّلنا على الحيوان غير الناطق حتى ملكناها وسسناها ، وذللناها وصرفناها في الوجوه العائدة منافعها علينا وعليها ، وبالعقل أدركنا جميع ما يرفعنا ، ويحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل به إلى بغيتنا ومرادنا ، فانا بالعقل نلنا صناعة الطب الذي فيه الكثير من مصالح أجسادنا ، وسائر الصناعات العائدة علينا ، النافعة لنا ؛ وبه أدركنا الأمور الغامضة البعيدة المستورة عنّا ، وبه عرفنا شكل الأرض والفلك ، وعظم الشمس ، والقمر وسائر الكواكب ، وأبعادها وحركاتها . وبه وصلنا إلى معرفة الباري عزّ وجل الذي هو أعظم ما استدركنا ، وأنفع ما أصبنا .

وبالجملة فإنه الشيء الذي لولاه كانت حالتُنا حالة البهائم ، والأطفال والمجانين » [1] وقد رفع القرآن الكريم من شأن العقل ، فكثير من الآيات القرآنية تطلب التحلّي به ، والتمسك بأهدابه ، والسّير في طريقه .

وقد حاولت أن أحصر ورود هذه الكلمة التي تقوم عليها تصرّفات الإنسان ، وتفسرُ سلوكه في الحياة فوصلت إلى ما يأتي :

أ ـ صيغة « عقلوه » جاءت مرة واحدة في قوله تعالى : « يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه » [2]

ب – صيغة «تعقلون» تكررت ٢٤ مرة ومعظمها جاء على صورة الرجاء : « لعلكم تعقلون » ، وعلى صور الاستفهام « أفلا تعقلون » .

---

(١) مقام العقل عند العرب : حافظ طوقان ص ١٠ .

(٢) البقرة ٧٥.

جـ ـ صيغة « يعقلون » تكررت ٢٢ مرة منها ١٠ صيغ بدون نفي ، ١٢ صيغة جاءت منفية بلا النافية : « لا يعقلون » .

د ـ «تعقل» جاءت مرة واحدة في قوله تعالى : «لو كنا نسمع أو نعقل » (١) .

هـ ـ صيغة « يعقلها » جاءت مرة واحدة في قوله تعالى : « وما يعقلها إلا العالمون » (٢) .

من هذا الإحصاء نقرر في وضوح أن العقل في القرآن الكريم شغل كثيراً من آياته التي وصفت المؤمنين الذين آمنوا بربهم بأنهم عقلاء يتدبرون آيات الله ، ووصفت هؤلاء المنحرفين بأنهم قوم لا يعقلون إن هم الا كالأنعام بل هم أضل .

ان الأمثال العديدة التي يضربها الله تعالى لخلقه لنأخذ منها العبرة والعظة لا يسبر غورها ، ولا يحيط بكنهها ، ولا يدرك مرماها إلا هؤلاء العقلاء الذين تدبروا وتفكروا ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون » (٣) وإذا يممنا وجهنا نحو الأصل الثاني من أصول الإسلام في التشريع وتنظيم المجتمع ، والاهتمام بالإنسان وهو السنة رأينا في ذلك جملة من الأحاديث تشيد بالعقل والعقلاء وفي الوقت نفسه تذم الحمقى والجهلاء . وفي المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي نجد مادة « عقل » تشغل حيّزاً من صفحاته (٤) .

---

(١) الملك ١٠ .

(٢) العنكبوت ٤٣ .

(٣) العنكبوت ٤٣ .

(٤) أنظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٤ : ٢٩٨ .

وقد حفظ لنا التراث الإسلامي عبارات عديدة كلها تمدح العقل ، وتعترف بفضله لا تتسع صفحاتُ هذا البحث لتسجيلها ، وإنما نكتفي بمثال واحد حول العقل في ميدان الخصومات أو في ساحات القضاء ، فهذا عمر بن الخطاب ينص في رسالته إلى أبي موسى الأشعري على استعمال العقل في الفصل بين الخصومات . إنها رسالة هي دستور القضاء إلى يومنا هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يقول رضي الله عنه في رسالته : « لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه إلى رشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الأشباه والأمثال نفس الأمور عند ذلك »[1] .

ولنا أن نتساءل بعد هذه النصوص التي قدمتها في مكانة العقل وسمو منزلته . هل يستطيع العقل أن يطرُقَ باب ما لم يدركه ؟ هل يستطيع العقل أن يبحث فيما وراء العقل ؟ تلك هي القضية وسأحاول بسطها في إيجاز في النقطة الآتية :

العقل والغيب :

هذا العقل الذي يخطط في الحياة من أجله ومن أجل غيره ، هذا الذي تغمر الوجود عطاياه ، هذا العقل الذي أمدّ الحياة

(١) انظر الكامل للمبرد ١ : ١٣ .

بالحركة والنشاط المذهل ، هل ينفذ نوره إلى كشف أسرار الحياة ، وطلاسم الوجود ؟

كيف يفسر لنا العقل في مجال ما يشاهده ، رفع السماء من غير عمد ؟ كيف يفسر نظام المجموعات الشمسية التي تطل عليه فيرفعُ إليها طرفه فيرتدُ خاسئاً وهو حسير ؟ كيف يفسر لنا كشف أسرار الحياة في المادة التي ماتت ثم يخرج منها الحياة مرة أخرى قوية في إعجاب ؟

هذا فيما يشاهده ، أما ما لم يشاهده فإن العقل أعجز من المشلول الذي لا يستطيع أن يتحرك .

كل هذه الأمور من السهل الإجابة عنها لأنه من البدهي أن العقل مخلوق محدود ، مهما بلغ من الكمال والرقي فله مستوى معيّن لا يتعداه ، وغاية لا يتجاوزها ، وذلك لأن المسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يكاد يعبرها العقل البشري ... كيف يعبر العقل البشري هذه المسافة الهائلة إلا بالإحالة على الإرادة المبدعة التي تقول للشيء : كن فيكون ؟

ان العقل إذا لم يعترف بهذه الإرادة المبدعة عجز تماماً عن التعليل والتفسير أو تخبط تخبط الفلاسفة في شتى العصور»[1] .

ويعجبني في تحليل فلسفة عجز العقل البشري عن الإحاطة بأسرار الكون ، وأنه ضعيف في ميدان الغيبيات لا يستطيع أن يصعّد النظر إليها ـ يعجبني ذلك التحليل الرائع للعلامة أبي الحسن النَّدْويّ حيث وضع بتحليله العقل في حجمه الطبيعي وقفصه المادّي

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للشهيد سيد قطب ١١٢ .

يقول ما نصه : « اننـا لو نقدنا العقل نقداً عقلياً جريئاً مجرّدين عن سيطرة العقل على العقل نرى أن العقل وحده عاجز في أداء وظيفته الطبيعية بل هو مضطر إلى الاستعانة بأشياء هي أقل منه قيمة ، ففي إدراك ما لم يدركه العقل من قبل يحتاج إلى استخـدام المعلومات التي حصلت له مسبقاً ، ولا تكون هذه المقدّمات إلا المحسوسات ، فلو حللت المعقولات كلها تحليلاً دقيقاً ، وسمعت رحلة العقل الطريفة والطويلة المدى عرفت أن وسيلة العقل في اكتشاف العوالم الجدد ، والغوص في البحار المجهولة إنما هي هذه المحسوسات التي تبدو تافهة حقيرة ، والمعلومات البُدائيةَ التي لولاها ، ولولا ترتيبها ترتيباً خاصاً لما وصل العقل إلى هذه النتائج الخطيرة ذات القيمة الكبيرة ، فحيث تشل الحواس البشرية ، وحيث لا تكون لدى الإنسان ذخيرة من معلومات ... فهنالك يعجز عقله عن شق الطريق إلى الأمام والوصول إلى نتيجة في هذا الموضوع كما يعجز أحدنا عن أن يعبر البحر من غير سفينة ، وأن يطير في الجوّ من غير طائرة »[1] .

وفي ضـوء هذا النص يتبين لنا بصفة قاطعة أن التساؤلات التي بدأت بها هذه النقطة من البحث حول إمكانية هذا العقل أن يمرّر هذه القضايا ، قضايا السماوات والأرض قضايا بداية العالم ونهايته ، قضايا الغيب وما حوى من باب عقله الضيق ، أنه لا يستطيع ذلك أنه لو استطاع ذلك لاستطاع الجمل أن يلج في سم الخياط .

مـن أجل ذلك كان على العقل أن يلوذ بالصمت ، وأن يسكت

---

(١) بين الدين والمدنية ص ١٦ لأبي الحسن الندوي .

سكوت المحايد ، ولأبي بكر بن العربي موقف دقيق من هذا الذي يسمونه : « عقلا » ، فقد عرّى العقل من كل ما يملك إزاء المدركات التي لا يستطيع أن يلوي عنقها نحو تفكيره ، لأنها أقوى منه بكثير وقد ردّ على هؤلاء الفلاسفة الذين نزلوا العقل منزلة فوق منزلته ، ومنحوه قدراً فوق قدره ، وبيّن لهم أن دعوتهم حمقاء « لا تقوم على سوق ، وهي الزعم بأن العقل قادر قدرة مطلقة على إدراك أو تحصيل جميع المعلومات إذ أنه ليس لنا أن ندعي أن له مكاناً في الإدراك يتيح له أن يحيط بكل شيء بمفرده واستقلاله بل أن العقل متواضع ومحدود في مجال إدراكه إذ يوجد طور فوقه ، وعال عليه لا يقوى على إدراكه ، ولا على أن يطرق بابه ، وإنما الذين يَقْوونَ على طرْق بابه والنفاذ إليه ، إنما هم الأنبياء الذين أوتوا وسائل توضيح حقائقه ، والتعبير عن قانونه » [1] .

وعلى هذا المنهج سار الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال » حيث يقول : « وعلى الجملة فالأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرّفنا ذلك ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العُمْيان إلى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين ، وإلى هاهنا مجرّى العقول ومخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك إلاّ عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه » [2] .

---

(١) انظر آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ١ : ٤٤ .

(٢) المنقذ من الضلال للإمام الغزالي ٨٧ .

ومن هذا المنطلق كان العقل في حاجة إلى الوحي فهو النور الذي يساعده على أن يسير في دروب الحياة ، ثابت الخطا ، رابط الجأش ، ذلك لأن العقل لا يعيش إلا في المدركات ، والمدركات لها علاقة بالبيئات ، والبيئات ألوان مختلفات ، فقد تؤثر فيه تأثيراً سيئاً فينحرف عن الصواب ، ويميل إلى الخطأ ، ويتجه إلى الباطل ومن ثم يتحول إلى مارد جبار يدمّر ولا يبني ، يهدم ولا يصلح ، يشقى ولا يسعد ولما كان شأنه كذلك ربطه خالقه بالوحي على أيدي رسل كرام يعيشون على هذه الأرض يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق . ومن دونهم فإن مسؤولية العقل في الضلال موقوفة وانحرافه عن جادة الصواب غير مؤاخذ بها ، لأنه تصرف في حدود قدراته ، وصدق الله العظيم ، « وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولا » (١) .

وسأتناول الوحي بشيء من الدراسة والبحث لأنه الدعامة الثانية للفكر الإسلامي بكل جوانبه المختلفة ، بكل ميادينه المتعددة في الأرض وفي السماء في الدنيا وفي الآخرة .

الوحي

كما كانت مدلولات العقل في اللغة عديدة ، فان مدلولات الوحي أيضاً عديدة ، فالوحي : إلهام لا يختص به الإنسان دون غيره من المخلوقات ففي جانب النحل نقرأ قوله تعالى : « وأوحى

---

(١) الاسراء ١٥ .

ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون » [1] وفي جانب الإنسان نقرأ قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه » [2] .

والوحي : إشارة : « فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيًا » [3].

والوحي همس ووسوسة : « وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم انكم لمشركون » [4]

والقرآن الكريم : وحي : « ان هو الا وحي يوحى » [5]

والذي أهدف إليه من هذه المدلولات العديدة لكلمة « وحى » هو الوحي في اصطلاح الشرع .

والوحي في اصطلاح الشرع معناه : الرسالات السماوية التي يكلف بها نبي مختار من عباد الله ليعمل بها أو يبلغها مع عمله إلى القوم الّذين أرسل إليهم .

والوحي بهذا المدلول أنواعه عديدة : فقد يكون عبارة عن إلقاء المعنى في النفس والقلب .

وقد يكون كلاماً من وراء حجاب . ومن أنواعه أن ينزل ملك الوحي وهو جبريل عليه السلام إلى الأنبياء ليلقي عليهم رسالات السماء وتعاليمها ، وقد يأتي جبريل على صور مختلفة لا نستطرد

---

(١) النحل ٦٨ .

(٢) القصص ٧ .

(٣) مريم ١١ .

(٤) الأنعام ١٢١ .

(٥) النجم ٤ وانظر لسان العرب في مادة (وحي) .

في ذكرها لأنها وحدها تحتاج إلى بحث طويل والآية القرآنية الكريمة بينت أنواع هذا الوحي وهي قوله تعالى : « ومـا كان لبشر أن يكلمه الله إلاَّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء » [1] والـذي أريد أن أخلص إليه في مجال الحديث عن الوحي أن الإسلام تميز عن الأديان الأخرى التي سبقته بأن معجزته الخالدة قرآن موحى به من الله تعالى « وانـه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » [2] .

أعـني أن القرآن ليس من صنع العقل البشري ، وإلا لتناولته العقول لتجاريه في مجال القول ، وتناقشه في مضمار البلاغة ، وتتحداه في ميدان البيان .

ومـا زال القرآن الكريم إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يحمل عناصر القوة التي تفرض سلطانها على العقول والقلوب ، والعواطف والمشاعر ، والتي لا تمتلك القوى البلاغية إلا أن تستسلم لها في انقياد وخضوع [3] .

القرآن من حيث المعنى والاشتقاق :

تـعرّض اللغويون لأصل هذه الكلمة واشتقاقها ، وقد سجلت كتب المعاجم ما دار حولهم من خلاف ولم ينس السيوطي في

---

(١) الشورى ٥١ .

(٢) الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٥ .

(٣) انظر : من الدراسات الاسلامية للباحث ص ٤٢ .

« الإتقان » أن يجمع خلاصة هذه الآراء فبيّن أن الشافعي كان يرى : « أن القرآن اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله تعالى »[1] على حين يرى الأشعري والفراء والزجاج وقطرب أنه مشتق غير أنهم اختلفوا في مادة اشتقاقه .

فالفراء يقول : « هو مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضاً ويشابه بعضها بعضاً وهي قرائن » .

والزجاج يرى أنه وصف على فُعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع ، ومنه : قرأت الماء في الحوض أي جمعته .

وقطرب يقول : « إنما سمّي قرآنا لأن القارئ يظهره ويبيّنه من فيه آخذاً من قول العرب : ما قرأت الناقلة سلىً قط أي ما رمت بولد ، والقرآن يلفظه القارئ من فيه ويلقيه فيسميه قرآناً » .

وبعد عرض هذه الآراء ذكر السيوطي أن رأي الشافعي أسلم الآراء فقال : « والمختار عندي في هذه المسألة ما نصّ عليه الشافعي »[2] .

ويرى ابن عطية أن القرآن مصدر من قولك : قرأ الرجل ـ إذا تلا ـ يقرأ قرآناً .

وقراءة كما قال حسان بن ثابت يرثي عثمان بن عفان :

« ضحّوا بأشمط عنوان السجود به
يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً »[3]

---

(1) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١ : ٥ ، والقرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية للباحث ص ٢ .

(2) الاتقان : ٥١ .

(3) مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٨٣ .

توثيق النص القرآني :

ليس هناك كتاب مقدّس وثق توثيقاً مكيناً كالقرآن الكريم ، ولا شك أن هذا سرّ عظمته ، ومفتاح خلوده : « إنــا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » [1] .

وقـد لمس هذه الحقيقة ابن حزم في كتابه المشهور « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، فقد أشار إلى أن القرآن الكريم ظل « ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلاً جيلا لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر منصف غير معاند للمشاهدة ، ولا يشكّون ولا يختلفون في أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أتى به ، وأخبر أن الله عز وجل أوحى به إليه ، وأن من اتبعه أخذه عنه كذلك ، ثم أخذ عن أولئك حتى بلغ إلينا » [2] .

وكـانت الخطوة الأولى لتوثيق النص القرآني في عهد رسول الله ﷺ وكتابته حين النزول ، ومنع كتابـة شيء سواه حتى لا يختلط به ما ليس منه ، يدل على ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري أن النبيّ ﷺ قال : « لا تكتبــوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه » [3] .

وبهـذا النهي توقـف الصحـابـة عـن كتابـة الأحـاديـث في عهد الرسول عليه السلام صيانة للقرآن الكريم من كل شبهة حتى يظل مصوناً من كل تحريف ، ولهذا السبب حذر النبي ﷺ من

---

(١) الحجر ٩ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢ : ٨١ .

(٣) تقييد العلم للخطيب البغدادي ٢٩ .

الاهتمام الفكري والكتابي بغير القرآن الكريم . قال أبو هريرة : « خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نكتب الأحاديث ، فقال : ما هذا الذي تكتبون ؟ قلنا أحاديث سمعناها منك ! قال : أكتاباً غير كتاب الله تريدون ؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى » (١) .

وفي ضوء هذا النهي عن كتابة الحديث الشريف في عهد الرسول عليه السلام نستطيع القول بأن القرآن الكريم كتب كله بأقلام كتّاب الوحي وغيرهم من الصحابة الكاتبين ، بيد أنه لم يجمع في مصحف لأن الحاجة لم تكن ماسّة إليه إذ ذاك حيث كان الصحابة يتسابقون في حفظه ، ويتبارون في كتابته ، والرسول عليه السلام بين ظهرانيهم يتلو عليهم آياته ، ويبين لهم أحكامه .

على أن السّيوطي في الإتقان وضح السبب في عدم جمع القرآن في مصحف على عهد النبي عليه السلام بقوله : قال الخطابي : « إنما لم يجمع ﷺ القرآن في مصحف لما كان يترقّبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاءً بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة » (٢) .

نقد بعض المستشرقين :

راعني ما ذكره الدكتور المستشرق آرثر جفري في مقدمته

---

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي ٣٣ .

(٢) الاتقان في علوم القرآن ١ : ٥٧ .

لكتاب « المصاحف » حيث قال ما نصه : « الرأي الشائع في أن القرآن الكريم كتب في عهد النبي عليه السلام لا يقبله المستشرقون لأنه يخالف ما جاء في أحاديث أخرى أنه قبض ﷺ ولم يجمع في القرآن شيء » [1] .

ويقتنـع « آرثر جفري » بوجهة نظرهم مستنداً إلى دليل آخر فيقول : « وهذا يطابق ما روي من خوف عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق لما استحرَّ القتل بالقُراء يوم اليمامة .... وسبب الخوف هو قتل القراء الذين كانوا قد حفظوا القرآن الكريم ، ولو كان القرآن قد جمع وكتب لما كانت هناك علة لخوفهما » [2] .

وأطلـت التفكير في هذا القول فهديت إلى أن وراءه التشكيك في نص القرآن الكريم لأن الذاكرة مهما أوتيت من القوة لا تستطيع أن تمسك على ما فيها فترة طويلة ، وذلك يؤدي إلى نقص في النص القرآني أو زيادة عليه ، ويكون شأنه شأن الشعر المروي عرضةً للتغيير والتبديل .

وهـذا القول من آرثر جفري لا يستند إلى دليل ، ولا يقوم على حجة ، وذلك لأن ادعاء أن النبي ﷺ قبض ولم يجمع في القرآن شيء ، فليس المراد منه أن القرآن لم يكن مكتوباً حينذاك بل المراد أنه لم يجمع في مصحف ، وقد قدمت السبب في ذلك .

ولـيس هناك أصرح من الروايات التي تثبت كتابة القرآن

(١) المصاحف لابن أبي داود ص ٥ .

(٢) المرجع السابق والصفحة .

في عهد الرسول عليه السلام والتي تؤكد « أن القرآن كان مجموعاً على عهد رسول الله ﷺ ، وأنه ما نزلت آية إلاّ وقد أمر رسول الله ﷺ من يكتب له أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا » (١) .

وأمـا خوف عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق حين استحرّ القتل يوم اليمامة فاستدلال به في غير موضعه ، لأن خوفهما زيادة تحرّ في صيانة القرآن الكريم وحفظه ليلتقي المحفوظ بالمكتوب فلا تكون هناك فجوة بينهما ، وذلك لأن طريقة أداء هذا المكتوب لا يتأتى إلاّ عن طريق التلقين والرواية ، ومن ثمّ نشأ خوف الخليفتين الجليلين من أن يموت القراء ، فتتعثر طريقة الأداء » .

والخطـوة الثانية في توثيق النص القرآني أن الصحابة كانوا يعرضون ما يحفظون على رسول الله ﷺ كعبد الله بن مسعود الذي يقول : «قال لي رسول الله ﷺ : إقرأ عليّ ، ففتحت سورة النساء ، فلما بلغت : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » (٢) رأيت عينيه تذرِفان من الدمع فقال : حسبك الآن » (٣) .

والخطـوة الأخيرة في التوثيق على عهد رسول الله ﷺ أنه في السنة التي لحق فيها بالرفيق الأعلى عرض على جبريل القرآن مرّتين » (٤) .

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٧ .
(٢) النساء ٤١ .
(٣) نقلا عن « أبي علي الفارسي » للدكتور عبد الفتاح شلبي .
(٤) المرجع السابق والصفحة .

ومعنى ذلك أن القرآن الكريم كما هو مكتوب في المصحف العثماني الذي بين أيدينا هو القرآن الكريم ، هو الوحي المنزل على رسول الله ﷺ في العرضة الأخيرة بترتيبه من غير تقديم أو تأخير ، وبدون زيادة أو نقصان .

وفي هـذا يسجّل السّيوطي رأي الإمام البغويّ في الاتقان فيقول : « الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين الدّفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئاً خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته فكتبوه كما سمعوا من رسول الله ﷺ من غير أن قدّموا شيئاً أو أخّروا ، أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ يلقّن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك ، وإعلامه عند نزول كل آية أنّ هذه الآية تُكتب عقب آية كذا في سورة كذا ، فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه ، فان القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب »[1] .

ونحـن إذا قارنا بين هذا التوثيق العجيب الرائع الدقيق للنص القرآني وبين توثيق الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام ليكون منهج حياة ، وسبيل هدى لرأينا الفرق شاسعاً ، والبون كبيراً ، إنهم حرفوا فيه وغيّروا حتى ضاعت معالم الهداية منه ، وظروف هذا الإنحراف يعرضها لنا الشهيد سيد قطب في كتابه « المستقبل

---

(١) الاتقان ١ : ٦١ ، وانظر هذا البحث بالتفصيل في كتابي « القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ٣ ـ ٦ .

لهذا الدين » فيقول : « ان عهداً طويلاً من الاضطهاد الفظيع قد أظل اتباع عيسى عليه السلام سواء جاء هذا الاضطهاد من اليهود المنكرين أو من الرومان الوثنيين الذين كانوا يحكمون وطن المسيح مما اضطر الحواريين – تلاميذ المسيح – وأتباعهم وتلاميذهم إلى التّخفي ، والتنقل والعمل سرّاً فترة من الوقت طويلة ، ومما اضطرهم كذلك إلى تناقل نصوص الإنجيل وتاريخ عيسى عليه السلام تناقلاً خاطفاً في ظروف لا تسمح بالدقة ولا بالتواتر .... مما انتهى إلى رواية نصوص الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى – عليه السلام – في ثنايا روايات عن حياته وأعماله يختلف بعضها عن بعض فيما سمّي بالأناجيل ، وهي كلام هؤلاء التلاميذ ، ورواياتهم عن حياة المسيح متضمّنة في ثناياها بعضَ ما يروى من كلام السيد المسيح ، وقد كتب أقدم هذه الأناجيل بعد المسيح بجيل كامل ، ويختلف المؤرخون للنصرانية اختلافاً كبيراً في تحديد تاريخه ما بين ٤٠ سنة و٦٤ سنة كما يختلفون في اللغة التي كتب بها إذ لم يوجد له أصل قط ، وإنما وجدت ترجمة له »[١] .

(١) المستقبل لهذا الدين ٣١ للشهيد سيد قطب .

التقاء العقل والوحي

قلت فيما سبق إن التقاء العقل بالوحي هو اللبنة الأولى في بناء الفكر الإسلامي .

ولم يترك الإسلام العقل ليسير من غير توجيه ، لأن الدروب متعدّدة ، والمسالك متشعبة بل رسم له منهجاً يتربّى من خلاله على أصول التفكير السليم .

ومن عناصر هذا المنهج توجيههُ إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض ، لأنه كلما زاد معرفة بأسرار الكون زاد معرفة بخالقه ، ومدبّره وصانعه .

وقد كثرت في القرآن الكريم الآيات التي تدعو الإنسان إلى التفكير في هذا الكون بما حوى من مظاهر مختلفة لينطلق العقل إلى آفاق رحبة فسيحة ، فَيُقِرَّ بصانع هذا الكون ومبدعه من أجل أن تستقر العقيدة ، وتضرب جذورها في القلب وتمتزج باللحم والدم ، والحسّ والشعور ، والعاطفة والانفعال .

وجهه إلى الكون ليلتمس العبرة بنفسه ، ويُحِسّ بالحقيقة عن طريق إدراكه : « وهو الذي مدّ الأرض ، وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثّمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » [1] .

---

(١) الرعد ٣ .

« وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضّل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (١) .

ولم يكتف القرآن بذلك ، بل وجهه إلى إدراك الحكمة من صنع هذه المخلوقات ليعرف الإنسان مدى مكانته عند الله فيقول : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » (٢) . وجّهه أن ينظر إلى قوام حياته ، وإلى الطعام الذي قطع مراحل عديدة ليصل إلى فمه ، إلى معدته فيمدّه بالحياة والحركة ، والنّموّ والتّطور « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبّا ، ثم شققنا الأرض شقّا ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبّا متاعاً لكم ولأنعامكم » (٣) .

ثم وجه عقله بعد ذلك إلى قصة الإبداع الكبرى ، قصة خلق السماوات والأرض ، قصة انبثاق الحياة من العدم : «أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حيّ» (٤) .

وفي آية أخرى يقول عز وجل : «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون » (٥) .

---

(١) الرعد ٤ .

(٢) الغاشية ١٧ ــ ٢٠ .

(٣) عبس ٢٤ ــ ٣٢ .

(٤) الأنبياء ٣٠ .

(٥) يس ٣٣ .

ولم يقف القرآن الكريم في تربية العقل عند هذا الحدّ ، بل انتقل إلى مرحلة أخرى من مراحل التربية ، وهي توجيهه إلى الله ذاته ، بيّن له بالأدلة الفطرية والعقلية أن السماوات والأرض لا يستقيم أمرهما إلاّ بإله واحد : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » (١) .

وهذا الإله الواحد قريب يسمع نداء من ناداه ، ودعاء من دعاه « وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي » (٢) .

وحينما تستبد أحداث الحياة بالإنسان ، وتضيق منافذ الدنيا في نظره يُحِس العقل الإنساني بأنه قاصر عاجز ، لا يستطيع أن يدفع عوادي الزمن ، ويردّ نكبات الحياة ، ومن هنا ربّاه الإسلام على أن يركن في هذه الحالة إلى قوّة ترد إليه الاطمئنان ، وتبعث في نفسه الثقة ، وهي قوّة الإله الذي بيده وحده مصائر الأمور « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض » (٣) . « وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » (٤) .

على أن العقل الذي أتيح له أن يتربّى في هذه المجالات جميعاً ، والذي أتيح له من فرص التفكير ما يستطيع به أن يعي الدرس في يقظة وإدراك وقف عند مرحلة محدودة من التفكير لا يستطيع

---

(١) الأنبياء ٢٢ .
(٢) البقرة ١٨٦ .
(٣) النّمل ٦٢ .
(٤) غافر ٦٠ .

أن يتجاوزها ، لأنها فوق استعداده ، وفوق طاقته وفوق إدراكه . إنه تربى أن يفكر في كل ما تقع عليه العين أو يأتي إليه عن طريق الوسائل الحسية والمدركات ، ولكن ما وراء ذلك ، التفكير فيه تطاول على الحقيقة ، لأن العقل المحدود لا يستطيع أن يلمس هذه المرحلة أو يطرق بابها إلا وهي مرحلة التفكير في ذات الله أو حقيقة هذه الذات ، ومن أجل ذلك نهى الإسلام العقل أن يفكر في ذات الله ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله ، وكل ما ورد في بالك فالله بخلاف ذلك » . إن التفكير في الله جنون لا يستقيم مع المنهج السليم ، وكيف يفكر المحدود في اللامحدود والفاني في الباقي ، والعاجز في القوي ، والميت في الحيّ ؟

انّ العقل يعجز أن يحيط بإدراك هذه المخلوقات العظيمة التي تملأ هذا الكون من نجوم وشموس ، وأقمار وكواكب ، ومجرّات وراءها مجرّات ، فكيف يتطاول إذاً إلى صانع هذه المخلوقات ليدرك ذاته وهو « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير »[1] .

ان الإسلام قد وضع يد الإنسان على أزرار الكون ليلمس بعقله العبرة والعظة من وراء هذه المظاهر الكونية ، ولكن عقل الإنسان لو تجاوز حدوده لأدّى ذلك إلى التفكير المضطرب ، إلى الانحدار ، إلى الهاوية .

وقد ربى الإسلام العقل على هذا المعنى ففصل في كثير من

(١) الأنعام ١٠٣ .

القضايا بين الأسباب والمسببات والمقدّمات والنتائج ، والعلة والمعلول ، وهي مجالات لا يستطيع العقل إلاّ أن يعيش في مجالها ، فمنها يستمد تفكيره ، وعليه يبني نتائجه ، وكانت تربية الإسلام للعقل في هذا المجال اعلاماً له بأن الله الذي جعل لكل شيء سبباً قدرته تعالى لا تحدّ ، يستطيع أن يفصل بين المقدمة والنتيجة ، ويقطع العلاقة بين السبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، ولا أدل على ذلك من قصة زكريا عليه السلام مع السيدة مريم أم المسيح عليه السلام ، إنها قصة مليئة باللفتات العجيبة ، فمريم يأتيها رزقها رغداً من حيث لا تدري ، ففاكهة الصيف تجدها في الشتاء ، وفاكهة الشتاء تجدها في الصيف ، وليس هناك من يقدم لها هذه الفاكهة ، وهنا كان مثار العجب عند زكريا عليه السلام « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لك هذا ، قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » (1) .

وما لي أذهب بعيداً وزكريا نفسه امرأته عاقر ، والعاقر لا تلد ، وقد بلغ من الكبر عتياً ومن كان كذلك فقدرته على الإنجاب غير ممكنة . ولما أراد الله تعالى أن ينجب توارت الأسباب ، وتلاشت المقدمات أمام القدرة التي تقول للشيء كن فيكون» . « قال رب انّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء » (2) .

---

(1) آل عمران ٣٧ .

(2) آل عمران ٤٠ .

وجـاءت ولادة عيسى ـ عليه السلام ـ درساً ملهماً لهذا العقل ليقف على حقائق القدرة الإلهية . إنها ولادة أحدثت دويّاً هائـلاً في بني إسرائيل ، أقاموا الدنيا وأقعدوها ، لأن عقولهم عجزت عن إدراك حقيقة هذه القدرة العظيمة التي بقوتها توجد الأشياء : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[1] .

ومـن هنا يتلقى العقل أول درس في الإيمان بالغيب ، وبهذا الإيمان يستسلم العقل إلى ما وراء هذا الكون فيؤمن بالجنة والنار ، والبعث والنشور ، والحساب والعقاب والملائكة والرسل ، وكل ما ورد عن طريق رسل الله ـ عليهم السلام ـ مما لا يخضع لتجربة ولا يوضع تحت مجهر ، مما لا يدركه حس ، أو يتناوله بصر ، ولكنه انقياد يدل على الطاعة ، وإقرار يدلّ على الإيمان .

ومـع التقاء العقل بالوحي وتسليمه لقدرة الله تعالى الذي أبدع هذا الكون على غير مثال ، فإنه وقف حائراً أمام بعض آيات من نصوصه لأنها في ظاهرها لا تتناسب مع ما يجب لله تعالى من التنزيه عن الاتصاف بصفات مَن خلقهم ، ومن هنا انطلق هذا العقل ليقف على المعاني الخفيّة لهذه الآيات لتتناسب مع وحدانية الله تعالى ، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وقبل أن أطرق الحديث في هذه النقطة أحب أن أبيّن هل فسّر النبي ﷺ القرآن ، وبيّن معانيه التي تعجز العقول عن فهمها أو فسّر بعضاً وترك بعضاً ؟ ذلك ما سأجيب عنه في النقطة التالية .

---

(١) آل عمران ٥٩ .

قضية تفسير النبي صلى الله عليه وسلم للوحي :

مما لا ريب فيه أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، ولغة العرب في هذه الفترة من التاريخ كانت مضرب المثل في رصانة اللفظ ، وبلاغة المعنى وقوة التراكيب . ومع قوة اقتدار العرب في فنون القول تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بمثله أو بعشر آيات منه ، أو بأقصر سورة من سوره ، فعجزوا بعد أن حاولوا ، وصدق الله العظيم حين يقول : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » [1] . ولا يتطرق إلى الأذهان أن القرآن الكريم يفهم نصوصه العرب جميعاً لأن ذلك مخالف للنصوص التي سأعرضها في هذا الموقف .

حقاً ، أن من المفكرين العرب من يرى هذا الرأي كابن خلدون الذي نص في مقدمته على « أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه » [2] .

ولا أميل إلى هذا الرأي لأنه مخالف للواقع فضلاً عن مخالفته للنصوص : أما مخالفته للواقع فإن لغة العرب لم تكن ممثلة في لهجة واحدة ، ولا أميل إلى أن القرآن الكريم نزل بلهجة قريش وحدها بل نزل بها وبغيرها من اللهجات العربية الأخرى ، لأن هنالك نصوصاً تؤكد أن القرآن الكريم نزل بسبعة أحرف ، وإن

---

(١) الاسراء ٨٨ .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٧ .

كان معظمه بلهجة قريش . وحوادث اختلاف القراءات بين الصحابة عديدة سجلتها كتب الرواة والتاريخ ، وإذا كان الأمر كذلك فإن كثيراً من الأحرف التي نزل بها القرآن لا يعرفها العرب جميعاً ، وتحتاج إلى بيان وتوضيح ، وتفسير لمعانيها .

وأمّا مخالفتها للنصوص فقد ذكر ابن قتيبة في كتابه « المسائل » « أن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه بل لبعضها الفضل في ذلك على بعض ، والدليل عليه قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم يقولون آمناً به »(١) ثم قال ابن قتيبة : «ويدل عليه قول بعضهم : يا رسول الله إنك لتأتينا بالكلام ما نعرفه ونحن العرب حقاً ؟ قال : ان ربي علّمني فتعلمت » (٢) وأوضح رد على ابن خلدون ما ذكره ابن تيمية في مقدمته « في أصول التفسير » حيث قال : « يجب أن يعلم أن النبيّ ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : « لتبيّن للناس ما نزل إليهم » (٣) يتناول هذا ، وهذا وقد قال أبو عبد عبد الرحمن السّلّمي : «حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً »(٤) .

---

(١) المسائل مخطوط لوحة ٤ ـ نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٢٠٩٦٧ .

(٢) المرجع نفسه والصفحة .

(٣) النّحل ٤٤ .

(٤) مقدمة في أصول التفسير ص ٥ .

مـن أجل ذلك أقول : إن الخطوة الأولى في تفسير القرآن الكريم كانت على يد النبي ـ عليه السلام ـ، فلما نزل قوله تعالى : « الـذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن » (١) قال بعض الصحابة : وأينـا لم يظلم نفسه ؟ ففسر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ الظلم بالشرك ، واستدل عليه بقوله تعالى : « ان الشرك لظلم عظيم » (٢) .

وفي حـديث عـدي بـن حاتـم – رضي الله عنـه – قال : « لمـا أنزلت هذه الآية : « وكلـوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » (٣) عَـمَـدْت إلى عقّالين أحدهما أسود والآخر بياض فجعلتهما تحت وسادتي ، فجعلت أنظر إليهما فلا يتبيّن لي الأبيض من الأسود فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت فقال : إن وِسادك إذاً لعريض ، إنما ذاك بياض النهار من سواد الليل » (٤) .

هـذا وقد ثار الجدل بين العلماء حول تفسير النبي ﷺ للقرآن الكريم ، هل فسّر القرآن الكريم كله أو فسّر جزءاً منه أو فسّر فقط ما أشكل من آياته ؟ في رأيي أن النبي ـ عليه السلام ـ لم يفسّر القرآن كله متتبعاً سوره ليفسّر آياتها آية آية كما يفعل ذلك المفسرون ، لأنه لو فعل ذلك أغلق باب التفسير ، وبذلك يتعطل الاجتهاد ،

---

(١) الأنعام ٨٢ .
(٢) لقمان ١٣ .
(٣) البقرة ١٨٧ .
(٤) روح المعاني للألوسي ٢ : ٦٦ ـ ٦٧ .

ويتجمّد الفكر ، والإسلام من أخص خصائصه أن يتيح الطريق للأفكار العطشى أن تنهل من معين القرآن ما شاء لها أن تنهل بشرط أن تكون أدوات التفكير متكاملة .

والـذي يمكن أن يقال : أن النبيّ ـ عليه السلام ـ تناول في تفسيره الآيات التي تحتاج إلى بيان في العقيدة أو العبادة أو المعاملة أو السلوك . وما كان في إطار غير هذا الإطار تركه النبيّ ﷺ لعلماء المسلمين حتى لا يتعطل التفكير .

بعـد هذا العرض التمهيدي للبذور الأولى في التفسير عرفنا أن كثيراً من آيات القرآن لم تفسرها السنة وبقيت معانيها موضع جدل ونقاش بين مفكري الإسلام وسنتناولها في الموقفين التاليين : موقف السلف ، وموقف الخلف :

أ ـ موقف السلف من الآيات المتشابهة :

السـلف من الصحابة والتابعين وقفوا إزاء هذه الآيات المتشابهة موقف التسليم فربطوا عقولهم بالوحي ، ولم يتركوا لهـذه العقـول أن تتجاوز حدها ، لتعطي رأيها في آيات لم يبيّن النبيّ ـ عليه السلام ـ معناها ، وفي ألفاظ لم تتضح معانيها في لغتهم ، فأبو بكر الصديق – رضي الله عنه – سئل عن قوله تعالى : « وكان الله على كل شيء مقيتاً »[1] فقال : « أي سماء تُظِلّني ، وأي أرض تُقِلّني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم »[2] . وعمر بن الخطاب روى

(١) النساء ٨٥ .

(٢) مقدمتان في علوم القرآن ١٨٣ .

عنه أنه قرأ على المنبر «وفاكهة وأبّاً»[1] فقال : «هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : لعمرك أن هذا هو التكلّف يا عمر»[2] .

ب ـ موقف الخلف :

وظل الوضع على هذه الحالة حتى برزت أحداث عميقة في كيان المجتمع الإسلامي فقد دخل الإسلام بسبب الفتوح الإسلامية الكثير ، واختلط الفكر الإسلامي القائم على الامتزاج بين العقل والوحي بأفكار أخرى غريبة طفحت على سطح الفكر الإسلامي لتهزّه هزّاً عنيفاً ، وعلى العقل إزاء هذه الأفكار الوافدة ألا يقف موقف التسليم ، فإن السكوت عن هذه الأفكار الغريبة قد يؤثر في بناء الفكر الإسلامي .

ومن هنا تجرّد هذا العقل الإسلامي ليمسك بعصا موسى أمام هؤلاء الذين يريدون أن يهزوا كيان الوحي بأفكارهم المستوردة ، وليس هناك من حل إلاّ أن يلقي العقل الإسلامي عصاه لتلْقَفَ ما يأْفِكُون .

ظهر هذا العقل على يد المعتزلة ليصونوا آيات الله المتشابهة من انحراف المنحرفين وهدفهم الأسمى هو الدفاع عن العقيدة لتبقى صافية من الشوائب ، خالصة من الأكدار ورأوا أنه من العجز أن يقابل العقل الوافد بالاستسلام الذي يقوم عليه المنهج السلفي

---

(١) عبس ٣١ .

(٢) مقدمتان في علوم القرآن ١٨٣ .

رأوا أن الآيات التي تتعلق برؤية الله تعالى ، والتي تتعلق بالتشبيه لا بد أن تؤول ، لأن العقل لا يسلم بظاهرها الذي من اعتقده خالف العقيدة التي تدعو إلى الوحدانية الصافية ، والتي تدعو إلى التجرد من التشبيه .

وأوّلوا الكثير من الآيات التي تتناقل مع حرية الإنسان في أعماله حتى يكون الثواب والعقاب قائماً على أساس من العدل والحق.

والمشهور أن أصول المعتزلة خمسة هي :

١ ـ «القول بالتوحيد ، وفيه أن الله واحد لا شريك له من أي جهة كان .

٢ ـ القول بالعدل ، وفيه أن الله لا يحب الشر والفساد .

٣ ـ القول بالوعد والوعيد ، وفيه أن الله صادق في وعده ووعيده .

٤ ـ القول بالمنزلة بين المنزلتين وفيه أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ولكنه فاسق .

٥ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفيه تكليف المؤمنين بالجهاد وإقامة حكم الله » [(١)] .

والناظر لهذه الأصول يرى أنها ليست خارجة عن دائرة الإسلام ، وليست بعيدة عن أصول الدين ، ولكن الجديد في أصولهم أنها عرضت عرضاً عقليّاً ، والعرض العقلي يقوم على الحوار الذي يعطي الحركة الفعالة بين الطرفين المتحاورين حيوية ونشاطاً، أما التسليم لظاهر النص بلا دليل فهذا غير مقنع للعقل الذي يبحث عما وراء الأشياء والواقع أن هذا الخلاف بين المنهجين السلفي والمعتزلي خلاف فرعي ، خلاف حول السبيل الموصل إلى صيانة الإسلام من هذا

---

(١) النزعة العقلية في تفكير المعتزلة ص ٥٦ علي فهيم خشيم ط ثانية .

الخطر الذي بدأ يعلن عن نفسه بعد الفتوحات ، وكأن معركة السيف قد انتهت ، لتبدأ معركة العقل والفكر .

لهذا فإن أبا مظفر الإسفراييني قد أصاب حينما أنهى قضية الاختلاف بقوله : « ان الخلاف لا يكون خطراً إلا إذا كان في أصول الدين ولم يكن اختلاف بينهم في ذلك ، بل كان اختلافَ من يختلف في فروع الدين » [1] على أن الجانب السلفي لم يقف مكتوف الأيدي أمام آراء المعتزلة وغيرهم من الفرق الإسلامية موقف العاجز ، بل دافع عن وجهة نظره ، وكان عماده في هذا الدفاع النصوص الدينية من القرآن والسنة .

نستمع إلى أبي الحسن الأشعري لإعلان منهج أهل الحق والسنة أمام هذه الرياح الفكرية العاصفة ، يقول : « فإن قال لنا قائل : قد أنكرتم قول المعتزلة والقَدَريَّة ... فعرفونا قولكم الذي به تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون .

قيل له : قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل ، وبسنة نبينا محمد ﷺ ، وما روى عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ...

وجملة قولنا أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبما جاءوا به من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا نردّ من ذلك شيئاً ، وإن الله عزّ وجل إله واحد ، لا إله إلا هو ،

---

(١) نقلاً عن كتابي النزعة العقلية في تفكير المعتزلة ص ١٧ .

فرد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق .

وان الجنة والنار حق «وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور»[1] وأن الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، استواء منزهاً عن الممارسة ، والاستقرار ، والتمكن ، والحلول ، والانتقال ، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضته ، وهو فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى ، فوقية لا تزيده قرباً إلى العرش والسماء ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، وهو على كل شيء شهيد »[2] ومع ذلك فإن أبا الحسن الأشعري حامل لواء السنة لم يقم السدود بينه وبين العقل بل كان إيمانه بالنص من غير تأويل ، وفي الوقت نفسه يستعمل كل طاقات عقله ليدافع عن الباري تعالى لا يشبه المخلوقات لأنه خالقها ، وفي استدلاله الفكري ما ينمّ عن عقل واع يحرس الدين من أهواء المنحرفين يقول مثلاً : « فان قال قائل : لم زعمتم أن الباري سبحانه لا يشبه المخلوقات ؟ قيل له : لأنه لو اشبهها لكان حكمه في الحدث حكمها ، ولو أشبهها لم يخل من أن يشبهها من كل الجهات أو من بعضها ، فإن أشبهها من جميع الجهات كان محدثاً مثلها من جميع الجهات

---

(١) الحج ٧ .

(٢) الابانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري ص ٢٠ ـ ٢١ .

وان أشبهها من بعضها كان محدثاً من حيث أشبهها ، ويستحيل أن يكون المحدث لم يزل قديماً ، وقد قال الله تعالى : « ليس كمثله شيء » وقال تعالى : « ولم يكن له كفواً أحد »[1] .

وفي مسألـة ثانية يقول :

« فـإن قال قائل : لم قلتم : أن صانع الأشياء واحد ؟ قيل له : لأن الاثنين لا يجري تدبيرهما على نظام ، ولا يَتّسق على إحكام ، ولا بد أن يلحقهما العجز أو واحداً منهما ، لأن أحدهما إذا أراد أن يحيي إنساناً وأراد الآخر أن يميته لم يخل أن يتم مرادهما جميعاً أو لا يتم مرادهما ، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر . ويستحيل أن يتم مرادهما جميعـاً ، لأنه يستحيـل أن يكـون الجسم حياً وميتـاً في حال واحدة وإن لم يتم مرادهما جميعاً وجب عجزهما ، والعاجز لا يكون إلهاً ولا قديماً ، وإن تم مراد أحدهما دون الآخر وجب عجز من لم يتم مراده منهما والعاجز لا يكون إلهاً ولا قديماً »[2] .

ويستـدل الأشعري استدلالاً رائعاً يقوم على العقل والمنطق بأن للخلق صانعاً ومدبراً دبره يقول :

« مـا الدليل على أن للخلق صانعاً صنعه ، ومدبراً دبره ؟ قيل له : الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام كان نطفة ثم علقة ثم لحماً ودماً وعظماً وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال ، لأنا نراه في حال كمال قوته ، وتمام عقله لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعاً ولا بصراً ، ولا أن يخلق لنفسه جارحة ، يدل

---

(١) اللمع في الرد على أهل البدع ٢٠ .

(٢) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ١٩ ـ ٢٠ لأبي الحسن الأشعري .

ذلك على أنه في حال ضعفه ونقصانه عن فعل ذلك أعجز ، لأن ما قدر عليه في حال النقصان فهو في الكمال عليه أقدر ، وما عجز عنه في حال الكمال فهو في حال النقصان عليه أعجز ورأيناه طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلى حال الكبر والهَرَم ، لأن الإنسان لو جهد أن يزيل عن نفسه الكبر والهرم ويردها إلى حال الشباب لم يمكنه ذلك ، فدل ما وصفنا على أنه ليس هو الذي ينقل نفسه في هذه الأحوال ، وأن له ناقلاً نقله من حال إلى حال ، ودبره على ما هو عليه لأنه لا يجوز انتقاله من حال إلى حال بغير ناقل ولا مدبر . مما بيّن ذلك أن القطن لا يجوز أن يتحول غزلاً مفتولاً ثم ثوباً منسوجاً بغير ناسج ولا صانع ولا مدبر ومن اتخذ قطناً ثم انتظر أن يصير غزلاً مفتولاً ثم ثوباً منسوجاً بغير صانع ولا ناسج كان عن معقول خارجاً ، وفي الجهل والجاً » [1] .

وبعد فهذه خطوط عريضة قدمتها للتفكير الإسلامي بين العقل والوحي في مجال العقيدة وبقي أن نشير إشارة قصيرة لخطوط أخرى عريضة بين العقل والوحي في مجال التشريع .

(١) المرجع نفسه ١٧ ـ ١٨ .

الفِكرُ الإسلامي بَينَ العَقلِ وَالوَحي في مجَال التَشْريع

التشـــريـع هو الأصول الإسلامية أو التكــاليف التي تضبط بها أعمال الإنسان من أقوال وأفعال في مجال العبادات أو المعاملات ، أو التصرفات ، أو بعبارة أخرى التشريع هو الطريق الذي رسمه الشارع ليسلكه الإنسان في حياته بكل ما يصدر منه من أقوال وأفعال سواء كان ذلك عبادة أو عملاً .

إن الأصـل الأول من أصول هذا التشريع هو القرآن الكريم ، أنزله الله تعالى ليكون حجة تثبت أن محمداً – عليه السلام – رسول الله ، وهو معجزته الخالدة .

والقـرآن الكريم دستور للناس يبيّن لهم الطريق ، ويضمن لهم سعادة الدنيا وفوز الآخرة حينما يعملون بمبادئه ، ويسيرون على هدى تشريعه .

والأحكـام التي جاء بها القرآن الكريم ثلاثة أنواع :

١ ـ «أحكام اعتقادية تتعلق بما يجب على المكلف اعتقاده في الله وملائكته ، وكتبه ورسله واليوم الآخر .

٢ ـ أحكام خلقيّة تتعلق بما يجب على المكلف أن يتحلى به من الفضائل ، وأن يتخلى عنه من الرذائل .

٣ ـ أحكام عملية تتعلق بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال ،

وعقود وتصرفات وهذا النوع الثالث هو فقه القرآن »[1] .

والأحكـام العملية في القرآن الكريم نوعان : عبادات ـ ومعاملات .

أمـا العبادات فقد وضحها القرآن بالتفصيل والبيان ، وما جاء منها مجملاً فصّله رسول الله ﷺ .

وأمـا المعاملات فقد تنوعت في القرآن الكريم وتعددت ، وقد أحصيت آيات المعاملات فجاءت على النحو التالي :

١ ـ «أحكام الأحوال الشخصية وهي تتعلق بالأسرة من بدء تكوينها ... وآياتها في القرآن نحو ٧٠ آية .

٢ ـ الأحكام المدنيّة ، وهي التي تتعلق بمعاملات الأفراد ، ومبادلاتهم من بيع وإجارة ورهن ، وكفالة ، وشركة ، ومداينة ، ووفاء بالالتزام ، ويقصد بها تنظيم علاقات الأفراد المالية ، وحفظ حق كل ذي حق . وآياتها في القرآن ٧٠ آية .

٣ ـ الأحكام الجنائية : وهي التي تتعلق بما يصدر عن المكلف من جرائم ، وما يستحقه عليها من عقوبة ، ويقصد بها حفظ حياة الناس وأموالهم ، وأعراضهم وحقوقهم وتحديد علاقة المجني عليه بالجاني وبالأمة ، وآياتها في القرآن نحو ٣٠ آية .

٤ ـ أحكام المرافعات ، وهي التي تتعلق بالقضاء والشهادة واليمين ، ويقصد بها تنظيم الإجراءات لتحقيق العدل بين الناس وآياتها في القرآن نحو ١٣ آية .

٥ ـ والأحكام الدستورية ، وهي تتعلق بنظام الحكم وأصوله . ويقصد بها تحديد علاقة الحاكم بالمحكوم ، وتقرير ما

---

(١) علم أصول الفقه للأستاذ عبد الوهاب خلاف ص ٣٢ .

للأفراد والجماعات من حقوق وآياتها نحو ١٠ آيات .

٦ ـ والأحكام الدولية ، وهي التي تتعلق بمعاملة الدولة الإسلامية لغيرها من الدول ، وبمعاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية ، ويقصد بها تحديد علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول في السلم وفي الحرب ... وآياتها نحو ٢٥ آية .

٧ ـ والأحكام الاقتصادية والمالية ، وهي التي تتعلق بحق السائل والمحروم في مال الغني ، وتنظيم الموارد والمصارف . ويقصد بها تنظيم العلاقات المالية بين الأغنياء والفقراء ، وبين الدولة والأفراد ، وآياتها نحو ١٠ آيات » [1] . »

مـن هذا العرض نستطيع القول بأن القرآن الكريم جمع بين دَفّتيه كل الأحكام التي يكون الالتزام بها واجباً ، وقد أحاطت هذه الأحكام بتصرفات الإنسان السلوكية والتعبدية ، والتعاملية .

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن نقرّر أن النصوص التي يجب على العقل أن يسكت فيها ، ولا يحاول أن يضعها في ميزانه ليفتح فيها باب النقاش هي النصوص القطعية لأن نصوص القرآن الكريم اما قطعية ، في دلالتها ، لا تحتمل التأويل أو الرأي واما مجملة تحتمل دلالتها الرأي والتأويل ، وهي موضع الاختلاف بين العلماء في استنباط الأحكام منها ، وهي ظنية في مجال الدلالة لا في مجال النّص ، لأن نصوص القرآن الكريم جميعها موثقة في دقّة وإحكام لا يأتيها الباطل ، ولا يتسرب إليها الشك ، أقول : إن النصوص القطعيّة اشتملت على أحكـام جزئية تفصيلية ، كالإيمان بالله وملائكته ،

---

(١) انظر علم أصول الفقه للأستاذ عبد الوهاب خلاف ٣٢ ـ ٣٣ .

وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشره أو في القضايا التي لا تختلف من زمن إلى زمن ، ومن مكان إلى مكان كالميراث الذي حدّد فيه القرآن بالتفصيل نصيب كل وارث ، وكالمحرّمات للقرابة أو للمصاهرة أو للرضاع ، وكالحدود مثل حد القصاص ، وحدّ السرقة ، وحدّ الزنا ، وحد القذف ، ومثل بعض أنواع العبادات كالزكاة ، والصوم والحج والتيمم ، والوضوء . على أن عبادة الصلاة وضّحها رسول الله ﷺ وبينها بعمله بعد أن نص القرآن عليها « ان الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً »[1] . «حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى »[2] .

وما عدا هذه النصوص القطعيّة جاءت نصوص القرآن الكريم مجملة ، ولهذا سرّ ، لأن ظروف الناس تختلف من عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى بيئة . ومن خلال هذه النصوص ظهر ما يسمّى بالاجتهاد في الإسلام وهو ما سنخصه بمزيد من البحث فيما بعد إن شاء الله .

وقد وضع المرحوم الشيخ محمد المدني تصوراً دقيقاً لهذه النصوص القطعية التي لا مجال للعقل فيها وللنصوص المجملة التي لا تتدخل فيها الشريعة إلا بمقدار ما يحمي مثلها ومبادئها التي جاءت بها . يقول ما نصه : « ان الشريعة الإسلامية لها ميادين ثلاثة في حياة الناس تصول فيها وتجول ، ولها في كل ميدان من هذه الميادين أسلوب يختلف عن أسلوبها في غيره .

(١) النساء ١٠٣ .

(٢) البقرة ٢٣٨ .

أمـا الميادين الثلاثة فهي :

١ ـ ميدان العقائد .

٢ ـ ميدان العبادات .

٣ ـ ميدان المعاملات .

وأمـا أسلوبها في كل ميدان من هذه الميادين فهو على الترتيب :

١ ـ أسلوب المخبر الواصف .

٢ ـ وأسلوب المنشئ المحدّد .

٣ ـ وأسلوب الناقد المهذب .

بيـان ذلك :

١ ـ أن العقائد ـ التي يفرض علينا الدين أن نؤمن بها ـ ما هي إلا حقائق ثابتة في نفسها ، لها وجود واقعي ... فالألوهية وصفاتها حقائق ثابتة ، والبعث بعد الموت ، والحساب والثواب والعقاب حقائق ثابتة ... ليس للدين دور يقوم به إلا دور الكشف عنها ، والاستدلال عليها ، والاقتناع بها ... ومن هنا قالوا :

ان العقائد لا تقبل النّسخ ، ولا تتغير بتغير الزمان أو المكان ، ولا يسوغ أن تكون محل اجتهاد .

٢ ـ أما العبادات فهي تختلف عن العقائد في أنها إنشاءات أنشأها الله تعالى ، ورسم حدودها ، وهيأها على صورة خاصـة ، وطلب من عباده أن يعبدوه بها .

فالصـلاة عبادة منشأة مؤلفة من أفعال خاصة ، وأقوال خاصة على ترتيب خاص »[1] وأخذ الكاتب يصف الصوم وطريقته ،

---

(١) نقلاً عن الإسلام والطاقات المعطلة للأستاذ محمد الغزالي ١٠٤ .

والحج ومناسكه إلى أن يقول : « ولهذا يقول أهل الشريعة في إحدى قواعدهم المشهورة «لا يعبد الله إلا بما شرع» . فالأصل في العبادات والقرب أنها ممنوعة حتى يرد من الشارع ما يدل على طلبها ويبين لنا هيئاتها ورسومها الخاصة ، ولا يجوز لأحد أن يؤلف عبادة من عنده أو يتصرف في صور من صور العبادة المشروعة ثم يعبد الله بذلك ، وفي هذا يقول القرآن الكريم ناعياً على المشركين : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله »[1] وبهذا الأصل أبطلت البدع في الدين والعبادات ، وما يتصل بها . فكل من أراد القربة فعلية ان يتقرّب إلى الله بما شرعه الله ، ومن تقرب إليه بما لم يشرعه ـ ولو كان مظهره طاعة وقربة ـ فإنه مبتدع متلاعب في الدين .

ومثل ذلك كما لو قال قائل «سأصلي الظهر خمساً بدل أربع أو أصلي المغرب أربعا بدل ثلاث ،.. أو أتجه إلى بيت المقدس أو إلى المدينة بدل اتجاهي إلى الكعبة ، فكل هذا افتئات على الدين ، وعلى حق المعبود » .

وبين الكاتب الموقف الثالث في ميدان المعاملات فقال : « إن الشريعة ليست هي التي أنشأت للناس صور التبادل ، والتعاون والتعامل ، ولكنها جاءت فوجدت صوراً يتعامل بها ، فكان لها موقف منها غير موقف الإنشاء والرسم ، وغير موقف الأخبار والوصف ، وذلك الموقف هو الإقرار أو التعديل أو الإلغاء ، وهو ما سميناه « أسلوب النقد المهذب » .

---

(١) الشورى ٢١ .

وهي لا تتدخل في هذا الميدان إلا بمقدار ما تحمي مثلها ومبادئها التي جاءت بها من العدل ، والتيسير ، والرحمة ، ودفع أسباب التشاحن والبغضاء ، وربط أفراد المجتمع برباط من المحبّة ، والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان »[1] .

من هذا العرض الجيد للميادين الثلاثة للشريعة الإسلامية يتضح لنا أن العبادة ميدان لا يقربه العقل ، وميدان العقيدة أشبعنا القول فيه سابقاً وبيناً أن القرآن الكريم أثار العقل ليفكر ويدبر ، ليصل إلى الإيمان ، ويخضع لسلطان القرآن فيؤمن بكل ما أخبر به الله تعالى عن نفسه وعن مخلوقاته الغيبية من الجنة والنار والملائكة ، والبعث والنشور والحساب .

أما ميدان المعاملات فإن الإسلام أعطى للعقل حرية واسعة مرتبطة بروح الإسلام ومبادئه ، من خلالها يفكر ، وفي ضوئها يدبر ، وعلى نهجها يسير . ولو تعمقنا في البحث بعض التعمق في كل القضايا التي سبقت رأينا أن العقل يؤدي دوراً كاملاً فيها مع أنها خارجة عن سلطانه ، يؤدي دور المزاملة والمزاوجة في ميدان النظر إلى النصوص القرآنية مفصلها ومجملها كما بيّن ذلك الإمام القاسم الرّسي في كتابه « أصول العدل والتوحيد » حيث يقول : « إن هناك ثلاث حجج احتجّ بها المعبود على العبد ، وهي العقل ، والكتاب ، والرسول ، فجاءت حجة العقل بمعرفة المعبود ، وحجة الكتاب بمعرفة التعبّد ، وجاءت حجة الرسول بمعرفة

---

(١) الإسلام والطاقات المعطلة ١٠٦ ـ ١٠٧ .

العبادة ، والعقل أصل الحجتين الاخيرتين ، لأنهما عرفا به ، ولم يعرف بهما »[1] .

وابن تيمية يؤمن بهذا الاتجاه وهو أن العقل وظائفه غير معطلة في ميداني العقيدة والعبادة يقول : « كل ما يحتاج الناس إلى معرفته ، واعتقاده والتصديق به .. فقد بيّنه الله ورسوله بياناً شافياً قاطعاً للعذر إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين ، وبيّنه للناس ، وهو من أعظم ما أقام الله به الحجة على عباده بالرسل الذين بيّنوه وبلغوه ، وكتاب الله الذي نقله الصحابه ثم التابعون عن الرسول ﷺ لفظه ومعانيه ، والحكمة التي هي سنة رسول الله ﷺ مشتملة من ذلك على غاية المراد ، وتمام الواجب والمستحب والحمد لله الذي بعث رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الحكمة » . ثم يرد على هؤلاء الذين يرون أن دلالة الكتاب والسنة إنما هي بطريق الخبر المجرّد فيقول « الأمر ما عليه سلف الأمة ، أهل العلم والإيمان من أن الله سبحانه وتعالى بين من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يَقْدِر أحُدَ من هؤلاء قَدْرَه ، ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه .

وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله في كتابه التي قال فيها « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل »[2] ، فإن الأمثال المضروبة هي الأقيسة العقلية سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل »[3] .

---

(١) أصول العدل والتوحيد للإمام القاسم الرسي لوحة رقم ١١٣ مخطوط دار الكتب المصرية نقلاً عن كتاب « القرآن نظرية عصرية جديدة ص ٩١ » .

(٢) الزمر ٢٧ .

(٣) انظر موافقة صحيح المنقول الصريح المعقول لابن تيمية ١ : ١٣ ـ ١٤ .

مثالان تطبيقيان لالتقاء العقل بالوحي في الإسلام من خلال التشريع .

أ ـ نظام الشورى :

نص القرآن الكريم على مبدأ الشورى فقال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم »[1] وقال تعالى « وشاورهم في الأمر »[2].

مبدأ الشورى من منطلق هاتين الآيتين الكريمتين مبدأ ينادي به الإسلام وينص عليه القرآن ، ولكن كيف تكون الشورى ؟ ما طريقتها ؟ ما عدد من يشاورهم ؟ وما الشروط التي تتوافر في هؤلاء الذين نشاورهم ؟

كل هذه أمور متروكة للعقل وحده يتصرف فيها في ضوء العصور المختلفة ، وظروف المجتمع المتطورة .

والإسلام دين لم يحجر على العقول في سلوك الناس ، ولكن يعطي الخطوط العريضة لهذه العقول لتقوم بأداء وظيفتها من خلال المشكلات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية بحيث لا تبتعد عن المبدأ أو تنحرف عن الهدف ، وإلاّ تنكرت لنفسها وقتلت وجودها ، لأن عملها في هذه الميادين مرتبط بالمبدأ ، مبدأ « وشاورهم في الأمر » .

ونحن لو استعرضنا التاريخ الإسلامي لنبحث من خلال صفحاته عن مبدأ الشورى في الإسلام رأينا أن الإسلام يعتبر الشورى ركناً من أركانه لأن العقل مهما بلغ من القوة لا يستطيع وحده أن يفصل في مشكلات قد تتعلق بمصير الأمة أو بمصير الإنسان ذاته ، ومن

(١) الشورى ٣٨ .
(٢) آل عمران ١٥٩ .

هنا كان في حاجة ماسّة إلى من ينير له الطريق ، ويدله على الصواب ، وحينما تحتك العقول بعضها ببعض وتتحاور الآراء وجهاً لوجه فإن ثمرة هذا التحاور ، ونتاج هذا الاحتكاك تعود على الفرد وعلى المجتمع بالخير والبركة ، والبشر والاسعاد .

والسؤال الذي يطرح نفسه في مبدأ الشورى هو ، هل هذه الشورى ملزمة أو أنها مبدأ اختياري لجأ إليه من كان في حاجة إليه ، وانصرف عنه من يستطيع أن يفصل المشكلات برأيه الخاص ؟

يجيب عن هذا التساؤل العلامة أو الأعلى المودودي فيقول : « ما وجدت حكماً قاطعاً في هذا الباب في أحاديث النبيّ ﷺ ، غير أن العلماء قد استنبطوا من عمل الصحابة في عهد الخلافة الراشدة أن رئيس الدولة هو المسؤول الحقيقي عن شؤون الدولة وعليه أن يسيرها بمشاورة أهل الحل والعقد ولكنه ليس مقيداً بأن يعمل بما يتفقون عليه كلهم أو أكثرهم من الآراء ، وبكلمة أخرى أنه يتمتع بحق الاعتراض على آرائهم » .

وفي ظاهر هذا الرأي للعلامة المودودي ما يشير إلى انفراد الخليفة بالسلطة وهو مظهر من مظاهر الاستبداد ، ولكن سرعان ما يبدّد هذا الفهم حينما يقول : « ولكن هذا الرأي في صورته المجملة كثيراً ما يسبب سوء الفهم عند الناس في هذا الزمان إذ هم يحاولون فهمه بالقياس إلى أحوالهم وأوساطهم الحاضرة ، ولا ينظرون إلى ذلك الزمان ولا الوسط الذي قد أخذنا هذا الرأي من أعمال الأمة فيه ، فما كان أهل الحل والعقد في عهد الخلافة الراشدة منقسمين إلى أحزاب متفرقة .... بل كانوا كلما دعوا للمشاورة يأتون المجلس بقلوب ملؤها الإخلاص ... ثم يوازن

الخليفة بين الحجج الموافقة والمعارضة ، ويعرض عليهم ما عنده من الدلائل ، ويبيّن رأيه ، وكان هذا الرأي في عامة الأحوال رأياً يسلم به أعضاء المجلس كلهم ...» ثم قال : «ولم نعثر في تاريخ الخلافة الراشدة كله ولا على مثال واحد نرى فيه أهل الحل والعقد قد تفرقت آراؤهم حتى آل الأمر إلى عد الأصوات ، ولا نجد إلا مثالين عقد الخليفة عزمه فيهما على أمر لم يوافقه عليه أهل الحل والعقد كلهم أو أكثرهم أحدهما رأي أبي بكر الصديق رضي الله عنه في إنفاذ بعث أسامة بن زيد ، والآخر رأيه في قتال المرتدين .» « ثم يبيّن السيد أبو الأعلى المودودي أنه ليس معنى ذلك أن الدستور كان قد أعطى الخليفة حق الفسخ لآرائهم فاضطروا إلى قبول رأيه على كره من أنفسهم ، بل إنما بان السبب في ذلك أنهم كانوا يعتمدون على أبي بكر الصديق ، ويطمئنون إلى فهمه »[1] .

والحقيقة أن السيد أبا الأعلى قد وضع النقاط على الحروف حينما فرّق بين المجتمع الإسلامي في حاضرنا ، والمجتمع الإسلامي القائم على أسس دولة القرآن التي تربّي الضمير فلا ينحرف عن الجادة ، الضمير الذي لا يعيش وراء المادة ، ولا يحيا في أوكار المؤامرات والتخطيطات للوصول إلى تحقيق المنافع الشخصية ، والأغراض الذاتية بغض النظر عن متطلبات الإسلام ، وحاجات المجتمع ، وتطلعات الأمة .

ان مجتمع الضمير الذي عاش فيه المجتمع الإسلامي الأول هو الذي بنى الرأي السليم في ضوء العقل المتحرر من سلطان المادية ،

(١) نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

وظلمات الجاهلية . ويعجبني في هذا الموقف موقف الضمير المسلم في المجتمع المسلم ما ذكره أديب العربيّة مصطفى صادق الرافعي حيث بيّن في قصة « اليمامتان » أثر هذا الضمير المسلم وذلك أن جيش عمرو بن العاص أسر أرمانوسة بنت المقوقس ، ووصيفتها مارية في موكب زواج بنت المقوقس من قسطنطين بن هرقل ملك الروم ، قالت الوصيفة لسيدتها في الأسر وكانت شاعرة :

جاءك أربعة آلاف جزار أيتها الشاة المسكينة ! !
ستذوق كل شعرة منك ألم الذبح قبل أن تذبحي !
جاءك أربعة آلاف خاطف أيتها العذراء المسكينة !
ستموتين أربعة آلاف مَيْتة قبل الموت !
قوّني يا إلهي لأُغْمِد في صدري سكيناً يردّ عني الجزارين !
يا إلهي ! قوّ هذه العذراء لتتزوج الموت قبل أن يتزوجها العربيّ !

قال الرافعي : وذهبت تتلو شعرها على أرمانوسة في صوت حزين يتوجّع فضحكت هذه وقالت : أنت واهمة يا مارية . أنسيت أن أبي قد أهدى إلى نبيّهم بنت « أنصنا » [1] فكانت عنده في مملكة بعضها السماء وبعضها القلب ! لقد أخبرني أبي أنه بعث بها لتكشف له عن حقيقة هذا الدين ، وحقيقة هذا النبيّ ، وأنها أنفذت إليه دَسِيساً يعلمه أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذي سيضع في العالم تمييزه بين الحق والباطل ، وأن نبيّهم أطهر من السحابة في سمائها وأنهم جميعاً ينبعثون من حدود دينهم وفضائله ، لا من

(١) هي مارية القبطية ، وكانت من أنصنا بالوجه القبلي في مصر .

حدود أنفسهم وشهوتها ، وإذا سلّوا السيف سلوه بقانون ، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون .

وقالت عن النساء : «لأن تخاف المرأة على عفتها من أبيها أقرب من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبيّ ، فانهم جميعاً في واجبات القلب ، وواجبات العقل ، ويكاد الضمير الإسلامي في الرجل منهم يكون حاملاً سلاحاً يضرب صاحبه إذا هم بمخالفته»[1].

من هذا التحليل الرائع للضمير المسلم نستطيع أن نقول كما قال أبو الأعلى : إن المجتمع في عهدهم يختلف كل الاختلاف عن المجتمع في عهدنا .

وقبل أن نختم مبدأ الشورى أحب أن أضيف إلى المثالين اللذين أنفرد بهما أبو بكر الصديق عن أهل الحل والعقد وهما : بعث أسامة بن زيد ، وقتال المرتدين أضيف مثالاً ثالثاً حدث في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك أن عمر رضي الله عنه لم يأخذ برأي أصحابه في كتابة السنن ، « فعن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه أن يكتبها ، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إني كنت أريد أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله تعالى ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً»[2] .

---

(١) وحي القلم ١ : ١٩ ـ ٢٠ .

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي ٤٩ .

ب ـ الحريّة :

ليس هناك دين تعتبر الحرية مبدأ من مبادئه كالإسلام الذي أرسى دعائم الحرية على أسس ثابتة لا تهتز إذا اهتزت الحريات ، لأنها قائمة على أصول هذا الدين الذي رسم للانسان حياته السياسية والاجتماعية والنفسية ، والعقيدية والدنيوية والأخروية بحيث يتفاعل بعضها مع بعض لتكون نموذجاً حياً كل جزء فيه يؤدي دوراً ليتكامل بناؤه وليشد بعضه بعضاً .

فهناك حرية العقيدة : « لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي »(١) .

وحرية الرأي : « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر »(٢) .

وحرية العمل : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى »(٣) .

وحرية الذات : « ولقد كرمنا بني آدم »(٤) .

١ ـ حرية العقيدة :

أما حرية العقيدة فقد كفلها الإسلام ، فلا استبداد ولا طغيان ، ولا ظلم ولا عدوان فهؤلاء المواطنون الذين لم يسلموا وهم يعيشون في حماية الدولة الإسلامية لهم من حرية العقيدة ما يستطيعون به أن يمارسوا طقوسها بدون تدخل من السلطة ، بل إن السلطة عليها

---

(١) البقرة ٢٥٦ .

(٢) الغاشية ٢١ – ٢٢ .

(٣) النجم ٣٩ – ٤٠ .

(٤) الاسراء ٧٠ .

أن تحمي كنائسهم ، وأن تصون معابدهم . ولم يكتف الإسلام بالجانب السلبي ، جانب عدم الاعتداء عليهم ، بل كان إيجابياً إلى آخر حدود الإيجابية حينما أمر المسلمين أن يبروهم وأن يعدلوا بينهم . وكلمة البرّ كلمة لها رنين لأنها تحمل في طياتها العطف والشفقة والرحمة والحنان وكلمة العدل تعني احقاق الحق ، وصيانة النفس ، وحفظ العرض ، ورعاية المال وصدق الله العظيم حينما يقول : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين »[1] . وقد لخص أبو الأعلى المودودي حرية عقيدة هؤلاء الذين نطلق عليهم « أهل الذمة » وهم الذين يقطنون في داخل حدود الدولة الإسلامية مع إقرارهم لها بالولاء والطاعة لخص حرية هؤلاء بالنص الآتي :

« مثل هؤلاء من غير المسلمين يضمن الإسلام المحافظة على ديانتهم ، وثقافاتهم وأموالهم وأعراضهم .. ويعطيهم في قوانين البلاد الداخلية مثل ما يعطي المسلمين سواء بسواء ، ويفتح لهم أبواب جميع الوظائف في الدولة إلا المناصب الرئيسية ويجعل نصيبهم من الحرية المدنية مثل نصيب المسلمين ، ولا يجيز أن يعاملوا في الشؤون الاقتصادية بما لا يعامل به المسلمون أنفسهم ، وفوق ذلك يعفيهم من تبعة الدفاع عن الدولة ويلقيها كلها على المسلمين وحدهم »[2] وفي دائرة التعبير عن الرأي في مجال العقيدة لم يشهر الإسلام سيفه أمام هؤلاء المنحرفين ولكن أتاح لهم فرصة التعبير ،

---

(١) الممتحنة ٨ .

(٢) تدوين الدستور ٥٨ .

وطلب من المسلمين ألا يهاجموا آراءهم بقوة السيف أو سلاطة اللسان أو العنف في الكلام .

وهـذه المبادئ عرضها علينا القرآن الكريم لنهتدي بها في معاملة أهل الكتاب الذين يعيشون في ديارنا ، ويخضعون لولائنا وسلطاننا حيث يقول تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون »[1].

٢ ـ حرية الرأي :

وأمّـا حريّة الرأي أو الفكر فإن الإسلام أطلق لها العنان ، لأن الحضارة لا تقوم إلا على أساس هذه الحرية ، والخراب الشامل والدمار العام لا يكون إلا إذا فقدت الحرية ، حرية الكلمة ، حرية القلم ، وفوق هذا وذاك حرية العقل .

ان الفكـر الحر ، يفتح أبواب المعرفة فتزدهر الحضارة ، وتتقدّم الأمم ، إن الفكر الحر ثمرة من ثمار العقل ، وهو أعظم نعمة منّ بها الخالق على الإنسان ، إن الإسلام يعتبر الفكر خليّة من خلايا تكوينه ، ولبنة حية في بنائه الشامخ ولقد تعددت في القرآن الكريم مادة « فكر » ومشتقاتها في ثمانية عشر موضعاً[2] ولكن الرأي الحر له حدود في الإسلام ، عليه ألا يتعداها وإلاّ تجاوز قدره وتحول إلى مارد جبار يخرّب ولا يعمر ، يفسد ولا يصلح ،

---

(١) العنكبوت ٤٦ .

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم في مادة « فكر » .

ذلك لأن الرأي وليد العقل ، وكما قلت سابقاً ان للعقل أن يفكر ولكن في حدود معينة من التفكير لا يتطاول إلى العقائد إلا في الطريق التي رسمها الشرع ، ولا يشرئب عنقه إلى العبادات إلا بالقدر الذي تسمح به التعليلات ، أما في المعاملات فإن للعقل أن يصول فيها ويجول ولكن داخل الإطار الإسلامي ، وفي ضوء روح الدين الذي جاء لإنقاذ البشرية من المهالك المدمّرة .

إن « الأصل في الفكر إذا جرى مجراه الطبيعي المستقيم هو أن يكون حواراً بين « لأ » و « نعم » فلا الرفض المطلق الأعمى يعد فكراً ، ولا القبول المطلق الأعمى يعد فكراً ، في الأول عناد الأطفال ، وفي الثاني طاعة العبيد ، الله وحده هو الذي وسع كرسيه السماوات والأرض فاتسع علمه للحق كله يعلمه علم اليقين ، علماً ليس فيه : « أمّا ... وأمّا ... » أما علمنا نحن البشر فأقصاه معرفة تحتمل البدائل ، نرجّح فيها بديلاً على بديل فما من فكرة إلا وتحتمل أن يكون نقيضها هو الصواب ...

كل منا يعرض حلاً ممكناً على أنه هو الرأي الذي يراه ، ومن الأخذ والرّد خلال عملية الحوار نقبل من الآراء المعروضة ما نقبله ، ونرفض ما نرفضه »[1] .

« تلك هي طبيعة الفكر الحر : أن يكون حواراً متعادل الأطراف لا يأمر فيه أحد أحداً ، ولا يطيع فيه أحد أحداً إلا بالحق ، ليس فيه رجحان للموتى على الأحياء ، ولا تفضيل لطائفه من الأحياء على طائفة .

(١) أنظر تجديد الفكر العربي ١٣٠ .

أمـا إذا انقلب الوضع وانعكس فأصبح ما نسميه فكراً هو أن يأمر آمر ليصدع بأمره مطيع ، واختصر الطريق الذي كان بين المتحاورين جيئة وذهاباً فبات طريقاً في اتجاه واحد أي أن يكون جيئة ولا ذهاب ، أن يكون هبوطاً ولا صعود ، أن يكون قولاً من هناك ، وسمعاً وطاعة من هنا فعندئذٍ قل على حرية الفكر السلام ».

« أس البـلاء في مجال الفكر هو أن يجتمع السيف والرأي الذي لا أرى غيره في يد واحدة فإذا جلا لك صاحب السيف صارمه ، وتلا عليك باطله زاعماً أنه هو وحده الصواب المحض ، والصدق الصراح ، فماذا أنت صانع إلاّ أن تقول له « نعم » وأنت صاغر ؟. هذه صورة رسمها أبو العلاء بقوله :

جلـوا صارمـاً وتلـوا باطـلاً وقالوا صدقنا ، فقلنا نعم»[1]

وفي مجـال حرية الرأي قسم السيد أبو الأعلى المودودي « حرية الرأي بالنسبة للناس إلى ثلاثة أقسام :

قـسم : « يقولون علنا بحرية الرأي ... فهم في كل أمر من أمور حياتهم يعتمدون على رأيهم أنفسهم ، ويؤمنون بما تحكم به عقولهم وكفى » ...

والقـسم الثاني يتألف من الذين هم يدينون بدين ما في ظاهر أمرهم ، ولكنهم يتبعون في الحقيقة آراءهـم وأفكارهم أنفسهم ، فهم لا يرجعون إلى دينهم ليأخذوا منه العقائد ، وقوانين الحياة ...

والثـالث يشتمل على الذين لا يستعملون عقولهم بل يعطلونها

---

(١) هذه العبارات التي بين الأقواس مقتبسة من كتاب تجديد الفكر العربي ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ بتصرف .

تعطيلاً ، ويجرون وراء غيرهم من الناس يقلدونهم تقليداً أعمى ...

فالطـائفة الأولى تتهالك على الحرية ، ولكنها لا تعلم حدودها الصحيحة ... وهذا النوع من حرية الفكر ... ضار بالتمدن والحضارة ، فمما تقتضيـه الحرية ألا يعتقد المرء إلا ما صح في رأيه نفسه ، وألا يسلك من الطرق إلا ما صوبه عقله هو .

ومما يقتضيه التمدن والحضارة ـ بخلاف ذلك ـ هو أن جميع من يضمهم نظام للتمدّن يجب أن يكونوا متفقين في بعض العقائد والأفكار الجوهرية ويتبعون في حياتهم تلك الآداب أو العادات ، وتلك القوانين التي قد قررت لنظم الحياة الاجتماعية ، فأنت تـرى أن حرية الفكر التي على هذا النحو تتناقض مع التمدن والحضارة ...

والطـائفة الثانية أسوأ حالاً من الأولى ، فالطائفة الأولى ضالة فحسب ، ولكن الثانية كذابة ومنافقة غاشة ، مدخولة الباطن ...

والطـائفة الثالثة أسفل هذه الطوائف جميعاً باعتبار درجتها العقلية فإنما حظ الطائفتين الأوليين أنهما تحمّلان العقل ما لا طاقة له به ، ولكن خطأ هذه الطائفة أنها لا تستعمل العقل أصلاً ...»[1] .

والناظـر في الفقه الإسلامي يجده ثمرة من ثمار حرية الرأي في الإسلام أنه مليء بلفتات عجيبة تؤكد هذه الحرية وتعلي من شأنها فالإمام ابن تيمية على الرغم من اعترافه بفضل الأئمة الذين اعترفت بهم الجماعة الإسلامية ، وأعطتهم قدرهم من الاجلال والاحترام فإنه يقرر : « لا يسوغ لأحد أن يلتزم مذهباً معيناً قد اختاره إذا تبيّن له أن الحق في أمر هو في غيره ، فإنه يجب أن

---

(١) نحن والحضارة الغربية لأبي الأعلى المودودي ٢٤٣ ـ ٢٤٦ . بتصرف .

يكون رائد طالب الشريعة هو الحق لذات الحق ، ولا يسوغ له أن يتعصب لرجل مهما تكن إمامته ولا ينظر إلى الشريعة إلا من وراء نظره ، وبمنظار لا يعدوه ، فإن كل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب الروضة الشريفة محمد ﷺ »[1].

والـدارسون للفقه الإسلامي يرون أن أبا حنيفة النعمان هو صاحب لواء أهل الرأي في الفقه ، وأنه كان يكثر من القياس ، والدارس للفقه الحقيقي تطالعه المسائل الكثيرة التي استعمل فيها الرأي ، ولكن الغريب أن مالك صاحب الموطأ ورجل الحديث ردّ بعض الأحاديث الآحادية في ضوء الرأي والفكر ، لأنها لا تتسق مع مقتضيات العقل ، ولا تتلاءم من طبيعة الفكر وهذا يدل ـ لا شك ـ على أن التحرر الفكري في الدراسات الفقهية سمة عامة في تراثنا الإسلامي وإليكم بعض الأمثلة التي تدل على حرية الرأي في فقه مالك :

١ ـ حديث غسل الإناء من ولوغ الكلب سبعاً إحداهن بالتراب ، قال فيه الإمام مالك : جاء الحديث ولا أدري ما حقيقته ، وكان يضعفه ويقول : يؤكل صيده فكيف يكره لعابه ؟ فقد اتخذ من أكل صيده الثابت بأصل قطعي وهو قوله تعالى « وما علمتم من الجوارح مكلبين »[2] دليلاً على طهارة لعابه ، والحديث يدل على نجاسته ، فتعارض الحديث مع استنباط قطعيّ من القرآن الكريم .

---

(١) ابن تيمية لأبي زهرة ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

(٢) المائدة ٤ .

٢ - وحديث من مات وعليه صيام صام عنه وليه لا يأخذ مالك بخبره ولا يأخذ بالخبر الذي جاء عن ابن عباس : «أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله : إن أمي ماتت وعليها صوم شهر ؟ قال : أفرأيت لو كان على أمّك دين أكنت قاضيه ؟ قالت : نعم ، قال : فدين الله أحق أن يقضى » ويروى هذا الحديث في الحج لا في الصوم ، ويروى في النذر لا في الصوم وقد ردّها جميعاً مالك أخذا بالقاعدة المستمدّة من القرآن الكريم وهي : « ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى »[1].

٣ - وحديث اكفاء القدور التي طبخت من الإبل والغنم قبل القَسْم ردّه مالك اعتماداً على العقل والرأي .

فإنه يروي أن إبلاً وغنماً ذبحت من الغنائم قبل قسمها فأمر النبي باكفاء القدور ، وجعل ﷺ يمرغ اللحم في التراب ، فردّ مالك الحديث لأن اكفاء القدور وتمريغ اللحم في الأرض إفساد مناف للمصلحة ، والحظر يكفي فيه بيان الخطأ فيما صنعوا ، وأنهم أثموا فيما فعلوا وليأكلوا ما ذبحوه أو يقتسموه بلا إكفاء للقدور ، ولا تمريغ في التراب فيتم التنبيه ، وبيان التحريم من غير إتلاف ولا إفساد ».[2]

وما لي أذهب بعيداً وقد رأينا بذور حرية الرأي قد نمت لدى جماعة من الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ ، جماعة

---

(١) النجم ٣٨ - ٣٩ .

(٢) انظر مالك حياته وعصره لأبي زهرة ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

« عرفوا بالفقه والعلم ، وطول ملازمة الرسول عليه السلام ، وقد صدرت عنهم عدة فتاوى في وقائع مختلفة وعني بعض الرواة من التابعين ، وتابع التابعين بروايتها وتدوينها حتى ان منهم من كان يدوّنها مع سنن الرسول عليه السلام»[1].

والواقع أن مذهب الصحابي قد يكون خبراً مروياً عن الرسول عليه السلام فهذا حكمه حكم الأحاديث المروية ، وللأحاديث في ضبطها ، والفحص عنها ورواية سندها ، وما يوجه إلى هذا السند من دراسة وبحث أحكام عملية معروفة في كتب السنة .

أما إذا كان مذهب الصحابي قائماً على الرأي والاستنباط فهذا موضع خلاف بين العلماء .

« فقال أبو حنيفة ومن وافقوه : إذا لم أجد في كتاب الله ، ولا سنة رسوله أخذت بقول أصحابه من شئت ، وأدع قول من شئت ثم لا أخرج عن قولهم إلى غيره ».

« وظاهر كلام الشافعي أنه لا يرى رأي واحد معين من الصحابة حجةً ، ويسوّغ مخالفة آرائهم جميعاً ، والاجتهاد في استنباط رأي آخر لأنها مجموعة آراء اجتهادية فردية لغير معصومين ، وكما جاز للصحابي أن يخالف الصحابي يجوز لمن بعدهما من المجتهدين أن يخالفهما »[2].

التفسير بالرأي في مجال القرآن الكريم :

بعد إطلاق عقال حرية الرأي في مجال الفقه والمعاملات ،

---

(١) علم أصول الفقه للأستاذ عبد الوهاب خلاف ٩٤ .

(٢) علم أصول الفقه ٩٦ .

وبعد أن وضعنا أيدينا على ذخائر ثمينة في تراثنا العربي من هذا الفكر الحر نتجه إلى القرآن الكريم لنفتح قضية حرية الرأي في تفسيره .

في رأيي أن حرية الرأي في تفسير القرآن الكريم يجب أن تخضع لقيود صارمة وليس معنى ذلك أنني أقف حجر عثرة في طريق هؤلاء الأحرار الذين يحاولون أن يخضعوا كتاب الله للتفسيرات العصرية ، ذلك لأنه من حقهم أن يفكروا وليس تفسير كتاب الله وقفاً على طائفة معينة من الناس ، أو فئة مميزة من العلماء، ذلك لأن الإسلام كما قلت هو دين الحرية دين التفكير ، دين العطاء يحارب التقليد ويتحداه ، ويحتضن العقل ويتبناه .

ولجلال القرآن الكريم وهيبته رأينا أبا بكر يجد حرجاً شديداً في أن يفسر القرآن برأيه في بعض الكلمات الغريبة ومثله عمر ، فأبو بكر سئل عن قوله : « وكان الله على كل شيء مقيتاً »[1] قال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم ».

وعمر حينما قرأ على المنبر : « وفاكهة وأبّاً »[2] ، قال : هذه الفاكهة عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : لعمرك أن هذا هو التكلف يا عمر »[3] .

والأصمعي الراوية كان يتحرّج من أن يقول في القرآن برأيه ، وأنه كان ينقد أبا عبيدة في كتابه « المجاز في القرآن الكريم » لأنه يفسر القرآن برأيه ويحدثنا الرواة أن أبا عبيدة سأل عن مجلس الأصمعي في أي يوم هو ؟ فركب حماره ، ومر بحلقة الأصمعي

---

(١) النساء ٨٥ .

(٢) عبس ٣١ .

(٣) مقدمتان في علوم القرآن ٧٦ .

فنزل عن حماره ، وسلم عليه ، وجلس عنده وحادثه ثم قال له : يا أبا سعيد (كنية الأصمعي) : ما تقول في الخبز ؟ قال الأصمعي : هو الذي نخبزه ونأكله . فقال له أبو عبيدة : فسرت كتاب الله برأيك . قال الله تعالى : « إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً »[1] فقال له الأصمعي : هذا شيء بان لي فقلته ، ولم أفسره برأيي ، فقال له أبو عبيدة : وهذا الذي تعيبه علينا : كله شيء بان لنا فقلناه ولم نفسره برأينا ، ثم قام فركب حماره وانصرف »[2] .

ونحن لا نميل إلى رأي الأصمعيّ في هذا ، فهو رأي متزمت يقوم على المبالغة في الحرص ، واتقاء الشبهات ، والعلم لا يزكو ولا يتطور إذا كان شعاره المنهج الأصمعي .

بيد أن ما نؤمن به ونعتقده هو أن التفسير لا يفتح بابه لكل من هب ، ودبّ لأنه كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده : « التكلم في تفسير القرآن ليس بالأمر السهل وربما كان من أصعب الأمور وأهمها ، وما كل صعب يترك ، ولذلك لا ينبغي أن يمتنع الناس عن طلبه .

ووجوه الصعوبة كثيرة أهمها أنّ القرآن الكريم كلام سماويّ تنزل من حضرة الربوبية التي لا يكتنه كنهها على قلب أكمل الأنبياء ، وهو يشتمل على معارف عالية ، ومطالب سامية لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية ، والعقول الصافية ، وأن الطالب له يجد أمامه الهيبة والجلال ، الفائضين من حضرة الكمال ما يأخذ

---

(١) يوسف ٣٦ .

(٢) نزهة الألبا ٧٣ .

بتلابيبه ، ويكاد يحول دون مطلوبه »[1]. وشرع الإمام يضع القيود الصارمة لمن يريد أن يسلك مجال التفسير حتى يكون على بينة من أمره ، ويصون نفسه من أن يقول في كتاب الله مـــا لم يكن مراداً .

ومـن أهـم هـذه القيود ، وإن شئت قلت هذه الشروط ، أن يكـون المفسر عالمـاً ملمـاً بأحـوال البشر ، في أطـوارهـم ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل ، وعلم وجهل ، وإيمان وكفر ، ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه ، ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه .

قال الأستاذ الإمام : «أنا لا أعقل كيف يمكن لأحـد أن يفسر قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين »[2] ... وهو لا يعرف أحوال البشر ، وكيف اتّحدوا ، وكيف تفرّقوا ، وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها ، وهل كـانت نافعة أم ضارة ، وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم .

أجمـل القرآن الكلام عن الأمم والسنن الإلهية ، وعن آياته في السماوات والأرض وفي الآفاق والأنفس ، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علماً وأمرنا بالنظر والتفكر والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالاً ، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة »[3] .

---

(١) مشكلات القرآن الكريم للامام محمد عبده ٩ ، ١٠ .

(٢) البقرة ٢١٣ .

(٣) مشكلات القرآن الكريم ١٧ ــ ١٨ .

قضية الاجتهاد :

يتعلـق بحرية الرأي في الإسلام الاجتهاد ، والاجتهاد في اصطلاح الأصوليين « هو بذل الجهد للوصول إلى الحكم الشرعي من دليل تفصيلي من الأدلة الشرعية »[1] .

والأدلـة الشرعية هي : القرآن ـ السنة ـ الاجماع ـ القياس . وليس للمجتهد أن يحيد عن هذه الأدلة ، فهي ميدانه ، ومنها يستمد رأيه غير أنه مما يجب معرفته أن الموضوع الذي يريد أن يجتهد فيه إن كان فيه نص صريح قطعي الدلالة فلا يجوز للرأي أو بعبارة أخرى للاجتهاد أن يتدخل فيه بالنقاش ، لأنه ورد من الله أو من الرسول ، وما ورد من الله أو الرسول يجب الالتزام به ، فجلد الذين يرمون المحصنات ثمانين جلدة لا يحتمل اجتهاداً أو رأياً .

وفي مجـال السنة على المجتهد أن يبحث عن السند ، ودرجة الرواية ، وهذا يختلف باختلاف المجتهدين ، فإذا إطمأن إلى الحديث بعد الدراسة والفحص أخذ به وليس الأخذ به ملزماً لغيره .

وإذا لم يجـد النص القرآني ليعتمد عليه في إصدار حكمه على قضية من القضايا أو من السنة المفسرة للقرآن أو التي وصلت درجة إسنادها مرتبة اليقين ففي هذه الحالة عليه أن يعمل الرأي ، أي القياس ، وهو إلحاق واقعة لا نص على حكمها بواقعة ورد نص بحكمها .

ولا شـك أن القياس عماده الرأي المتأني ، والفكر الدقيق ، والحرية في التعمق لاستخراج الحكم .

---

(١) علم أصول الفقه ٢١٦ .

وهو أمر ثبت بالقرآن وبالسنة . أما في القرآن ، فاستدلوا بثلاث آيات من آياته :

«الأولى : قوله تعالى في سورة النساء : «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول »[1] ووجه الاستدلال بهذه الآية أن الله سبحانه أمر المؤمنين إن تنازعوا واختلفوا في شيء ليس لله ولا لرسوله ولا لأولي الأمر منهم فيه حكم أن يردّوه إلى الله والرسول ، ورده إلى الله وإلى الرسول يشمل كل ما يصدق عليه أنه ردّ إليهما ولا شك أن إلحاق ما لا نص فيه بما فيه نص لتساويهما في علة حكم النّص من ردّ ما لا نصّ فيه إلى الله والرسول ، لأن فيه متابعة لله ولرسوله في حكمه .

والآية الثانية : قوله تعالى في سورة الحشر : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار »[2] وموضع الاستدلال قوله سبحانه «فاعتبروا» .

ووجه الاستدلال أن الله سبحانه بعد أن قص ما كان من بني النضير الذين كفروا وبين ما حاق « بهم من حيث لم يحتسبوا »، قال : فاعتبروا يا أولي الأبصار أي فقيسوا أنفسكم بهم لأنكم

---

(١) النساء ٥٩ .

(٢) الحشر ٢ .

أناس مثلهم إن فعلتم مثل فعلهم حاق بكم مثل ما حاق بهم .

الآيــة الثالثــة : قولــه تعــالى في سورة يس : «قل يحييها الذي أنشأها أول مرة» جواباً لمن قال : «يحيي العظام وهي رميم»[(١)] .

ووجــه الاستدلال بهذه الآية أن الله سبحانه استدل على ما أنكره منكرو البعث بالقياس ، فإن الله سبحانه قاس إعادة المخلوقات بعد فنائها على بدء خلقها وإنشائها أول مرة لاقناع الجاحدين بأن من قدر على بدء خلق الشيء وإنشائه أول مرّة قادر على أن يعيده بل هذا أهون عليه .

فهــذا الاستدلال بالقياس إقرار لحجيّة القياس ، وصحة الاستدلال به .

وأمّــا السنة : فبديل حديث معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعثه إلى اليمن قال له : كيف تقضي إذا عــرض لك قضاء ؟ قال أقضي بكتاب الله ، فإن لم أجد فبسنة رسول الله ، فإن لم أجد أجتهد رأيي ولا آلو . فضرب رسول الله على صدره وقال : « الحمد لله وفّق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله » .

ووجــه الاستدلال بهذا الحديث أن رسول الله أمر معاذا على أن يجتهد إذا لم يجد نصاً يقضي به في الكتاب والسنة .

والاجتهــاد بذل الجهد للوصول إلى الحكم ، وهو يشمل القياس ، لأنه نوع من الاجتهاد والاستدلال ، والرسول لم يقره على نوع من الاستدلال دون نوع »[(٢)].

---

(١) يٓس ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) انظر علم أصول الفقه ٥٤ ــ ٥٥ ــ ٥٦ .

وفي مجـال الاجتهاد لم ينس علماء الأصول أن يبيّنوا من هو المجتهد ؟ وما الشروط التي يجب أن تتوافر فيه . وهذه الشروط مجملها :

« معرفة اللغـة العربيـة ، ووجـوه الإعراب المختلفـة للنص الـذي ينظر فيه ـ وعليه أن يكون عالماً بمدلولات الألفاظ والمعاني وهو ما يتعلق بمتن اللغة كذلك عليه أن يكون مدركاً لعلوم البلاغة ، وأن يكون حظه من علم ما يقبل من الأحاديث وما لم يقبل كبيراً ، وليس هذا فحسب بل عليه أن يعرف مواطن الإجماع ، وأنواع العلل »[1] .

والاجتهـاد في الدين يدل على المرونة ، وعلى تقدير الرأي المستنبط ، أو الرأي الذي جاء بعد انعام نظر ، وطول تدبر ، والأمة الإسلامية في حاجة دائماً إلى هؤلاء المجتهدين فيما لم يرد فيه نصوص وهو إمام ظاهري لا يأخذ إلا بظاهر النص ، وما لم يرد فيه نص يتوقف فلا يخوض فيه ، ويلجم رأيه فلا ينطلق إليه ، استمع إليه يقول :

« ونحـن إن شاء الله تعالى ننقض كل ما احتجوا به ، ونحتـج لهم بكل ما يمكن أن يعترضوا به ، ونبين بحول الله وقوته بطلان تعلقهم بكل ما تعلقوا به في ذلك ثم نبتدئ بعون الله عز وجل بإبراز البراهين الواضحة الضرورية على إبطال القياس ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »[2] .

---

(١) انظر بحث «المجتهد والعلوم التي يجب عليه تحصيلها» للشيخ بدر المتولي عبد الباسط في مجلة العربي العدد ١٥٥ ص ٢٠ .

(٢) الأحكام ٧ ص ٥٦ نقلاً عن ابن حزم لأبي زهرة ص ٤١٣ .

ومـن الأدلة التي اعتمدها لإبطال القياس ما يأتي :

أ ـ « الله سبحانه وتعالى أنزل الشرائع فما أمر به فهو واجب ، وما نهى عنه فهو حرام ، وما لم يأمر به ولم ينه عنه فهو مباح مطلق حلال . والنصوص جاءت بكل ما هو محرم ، وجاءت بكل ما هو مأمور به والباقي على أصل الإباحة ، فمن أوجب بعد ذلك شيئاً بقياس أو بغيره فقد أتى بما لم يأذن به الله تعالى ، ومن حرم من غير النص فقد أتى بما لم يأذن به الله تعالى »[1] .

ب ـ ودليل آخر وهو : « أنـه لا قياس في موضع النص عند القياسيين ، وإنما القياس في غير موضع النص ، ومن قال : أنه لم يشمل النص كل شيء فهو يناقض قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً »[2] .

وقـوله تعالى : « لتبين للناس ما نزل إليهـم »[3] وقوله عليـه السلام في حجة الوداع : اللهم هل بلغت ؟ قالوا : نعم . قال : اللهم اشهد .

فـإن هذه النصوص كلها تدل على أن النصوص قد اشتملت على كل شيء فلا حاجة إلى قياس بعدها »[4] .

---

(١) الأحكام ٨ ص ٢٥ نقلاً عن ابن حزم لأبي زهرة ص ٤١٣ .

(٢) المائدة ٣ .

(٣) النحل ٤٤ .

(٤) المرجع نفسه ص ٤ .

ولا نستطيع أن نتفق مع ابن حزم لنقره على إغلاق باب الاجتهاد فإن ذلك مخالف لروح الإسلام ، الدين الشامل الذي تكفل بحل مشكلات البشرية على اختلاف الزمان والمكان .

على أن هذا القياس كما قدمنا له دليله من القرآن والسنة ، وقد اشتمل حديث رسول الله ﷺ على قدر كبير منه .

ومنذ سبع سنوات ظهرت الطبعة الأولى لكتاب « أقيسة النبي » المصطفى محمد ﷺ تصنيف الإمام ناصح الدين عبد الرحمن الأنصاري المعروف بابن الحنبلي المتوفى ٦٣٤ هـ.

وقد بلغت جملة الأقيسة في هذا الكتاب ١٩٠ قياساً [١] .

وإلى جانب أقيسة الرسول ﷺ نجد أمثلة من أقوال الصحابة والتابعين توضح هذا الاتجاه ، وتبيّن بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام دين لا يتعارض مع الحوادث الاجتماعية ، والتطورات الاقتصادية ، والمشكلات المذهبية ، لأنه رسم إطاراً واسعاً يستوعب كل ما يحدث أو يستجد من مشكلات ، أنه لا يبتعد عن هذه المشكلات لينزوي بعيداً ، ويتجمد في حدود العبادات لأنه دين ودنيا لا تستطيع الدنيا أن تنفصل عنه وكيف تنفصل ، وقد وضع لكل مشكلة من مشكلاتها حلاً ، ولكل قضية من قضاياها حكماً ، يدل على ذلك أن ابن عمر رضي الله تعالى عنه كانت تتعدد فتاويه ففي موسم يفتي في قضية بفتوى ، وفي موسم آخر يفتي في نفس القضية بفتوى أخرى فيسأل عن ذلك فيقول :

« ذاك على ما علمنا ، وهذا على ما نعلم » .

---

(١) أقيسة النبي المصطفى محمد ص ٢٠٤ .

والشافعيّ كان له مذهب قديم ، ولمّا رحل إلى مصر ورأى اختلاف البيئة غير مذهبه القديم وأصبح يعرف بالمذهب الجديد ، وينقل عنه الفقهاء ، ويقولون : قال الشافعي في القديم ، وقال الشافعي في الجديد وقد فتح باب الاجتهاد بالرأي الخليفة الواعي عمر ابن الخطاب ، استطاع أن يعطل حد السرقة عام المجاعة . بل انه « جاءه رجل يشكو سرقة خدمه فأحضرهم فأقروا ، وذكروا أن سبب ذلك أنه لا يقوم بكفايتهم من طعام وملبس فتركهم عمر ، وتوعد الرجل قائلاً : إذا سرق خدمك مرة ثانية قطعت يدك أنت »[1].

وأثمر الاجتهاد في الإسلام هذه المذاهب الفقهية التي تدل على العقل المستوعب ، والرأي المستنير ، وما زال هذا الفقه في حاجة إلى من يزيل عنه تراب الاهمال ، وبخاصة في مجالات المعاملات غير أنه مما يؤسف عليه أن باب الاجتهاد بعد سقوط بغداد رأى الفقهاء وبخاصة أهل السنة أن يسدوه خوفاً من الإساءة إليه بعلماء فقدوا شروطه ، ومفكرين لا تتوافر فيهم أدواته ، واقتنعوا بالمذاهب الأربعة وفتحوا باب التقليد لهؤلاء الأئمة الأربعة ، فتوقف الفكر ، وتجمد الرأي وعمّت موجة من الخرافات التي استبدت بعقول الكثرة من المسلمين مما دفع المصلح الكبير جمال الدين الأفغاني أن يدعو إلى فتح باب الاجتهاد لتنهض الأمة من غفوتها ، وتقابل مشكلات العصر بالرأي الإسلامي الذي ينبثق من روح الشريعة ، ومصلحة الإنسان فيقول : « ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأي نص سدّ ؟ ومن قال لا يصح لمن بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين ،

---

(١) انظر الإسلام والطاقات المعطلة ص ١١١ .

ويهتدي بهدي القرآن ، وصحيح الحديث ، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم الحديثة وحاجات الزمن وأحكامه ..؟ إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا ، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده »[1].

٣ ـ حرية العمل :

وأما حرية العمل فإن الإسلام كفلها للمسلم في كل ميدان من ميادين الحياة له أن يشتغل في الأرض ، وله أن يتاجر في العقار والمنقولات ، له أن يستثمر ماله ، له أن يتصرف فيه بحرية كاملة ، ولكن بشرط ألا تضر تصرفاته سلامة المجتمع أو سلامة الأفراد وفقاً لمبدأ « لا ضرر ولا ضرار في الإسلام » والإسلام لم يقف من تصرفاته موقف المتفرّج بل موقف المشجع ، موقف الحثّ على العمل والكفاح ، وما أكثر الأحاديث الشريفة ، والآيات القرآنية في هذا المجال.

والعمل من حيث هو عمل محبوب مكرّم ، فليس هناك أعمال للشرفاء أو أعمال لغير الشرفاء ، لأن العمل أياً كان لونه ، وأياً كانت طبيعته محبوب له وزنه وتقديره في الإسلام .

ولا أدل على ذلك من هذه القصة الرائعة في فضل العمل ، وعلة الناس عن السؤال « عن فاطمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أتاها يوماً ، فقال : أين ابناي ؟ ـ يعني حسناً وحسيناً ـ قالت : أصبحنا وليس في بيتنا شيء يذوقه ذائق ، فقال علي : اذهب بهما فإني أخاف أن يبكيا عندك وليس لديك شيء .

---

(١) مقام العقل عند العرب ٦٦ ، ٦٧ .

فـذهب إلى فلان اليهودي فتوجه إليه النبي ، فوجدهما يلعبان في شربة وبين أيديهما فضل تمر !

فقـال النبي ﷺ : ألا ترجع ابنيّ قبل أن يشتد الحر ؟ فقال علي : أصبحنا يا رسول الله وليس في بيتنا شيء فهلا جلست حتى أجمع لفاطمة فضل تمرات !!

فجلس الرسول ﷺ حتى اجتمع لفاطمة فضل تمر وضعوه في خرقة ، ثم عادوا جميعاً .

ويصف عليه عمله هذا فيقـول : لم يكن في بيتي شيء آكله ، ولو كان في بيت النبيّ شيء لبلغني ! فانطلقت إلى يهودي في بستان له ببعض نواحي المدينة ، واطلعت عليه من ثغرة في جداره ، فقال : ما لك يا اعرابي ؟ هـل لك في دلـو بتمرة ؟ قلت : نعـم افتح لي البستان ، فدخلت ، فجعلت أنزع الدلو ، ويعطيني تمرة حتى ملأت كفّي ..»[1] .

والسـؤال الذي يطرح نفسه حول حرية العمل هو : ما موقف الإسلام من الملكية الخاصة ؟ إذا كان الإسلام منح حق حرية العمل للمسلم ، أليس من حقه أن يمتلك ثمرة عمله ، ويستأثر بنتائج كسبه ، وعائد ربحه . أو بعبارة أخرى : هل هناك قيود على حريته في التملك تلك هي القضية ، وهذه هي المشكلة .

العـالم الآن يعيش بين فكي نظامين ، النظام الرأسمالي ، ويقوم على الملكية الخاصة التي تعطي لكل فرد من أفراد المجتمع الحق

---

(١) انظر الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين ص ١٩٦ للشيخ محمد الغزالي .

في أن يمتلك ما يشاء من المنقولات والعقارات ، والسلع الإنتاجية والاستهلاكية بعيداً عن سلطان القيود التي تحول بينه وبين الحرية في التملك .

والنظام الشيوعي أو الاشتراكي يقوم على حرمان الفرد من الملكية الخاصة لأنه ليس حراً في هذا التملك ، وكل المنقولات والعقارات ، والسلع بأنواعها ملك للدولة .

هـذا هو موقف النظامين العالميين من الملكية الخاصة ، فما موقف الإسلام ؟

الإسـلام له موقفه المتميز بين هذين النظامين ، ذلك لأنه يعترف بالملكية الخاصة ، وفي الوقت نفسه يعترف بالملكية العامة ، وللملكية الخاصة مجالها وللملكية العامة أيضاً مجالها . فللدولة مؤسساتها التي لا تتعارض مع مؤسسات الأفراد ، ولو كشف الغطاء لكان العائد من هاتين الملكيتين يجري في مصب واحد وهو خدمة الفرد وخدمة المجتمع أو بعبارة أخرى خدمة المسلم وخدمة الأمة ، وذلك لأن الإسلام لا يترك للفرد أن يستعمل حريته إلا بالموازين الإسلامية ، والمبادئ الدينية ، والتعاليم الخلقية . فالرصيد الروحي الذي يملكه المسلم يحوّل ملكيته الخاصة إلى معنى السمو الذي لم يستطع أي نظام أرضي أن يصعد إليه . فالمسلـم حينما يتحرّك في ذاتـه سلطـان الإسلام يرى أن هذا المال الذي تقوم عليه الملكية ليس ماله وإنما هو مال الله ، وهو خليفة الله في أرضه ، وما دام مال الله ، فنسبته إليه لا تتجاوز معنى الرعاية ، والحفظ ، والإنفاق ، والاستغلال في سبل البر والخير ليعم نفعه الأفراد والعباد ، وخير ما يصور هذه الحقيقة القرآن الكريم في الآيات التالية :

«وآتوهـم من مـال الله الذي آتاكـم»(1) ، «لـه ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثري»(2) ، «لله ملـك السماوات والأرض وما فيهن»(3) ، «ولله ملـك السماوات والأرض ومـا بينهما»(4) .

ومـن هذا المنطلق فإن «ملك الله مسخر لمنفعة البشر ، ولهم جميعاً أن ينتفعوا به ، ويستغلوه ويستثمروه ، ويعملوا فيه ، والله يؤتيهم ثمرات الملك وغلته ، وأجورهم رزقاً من عنده ، وما لرزقه من نفاد ، وما جعل الله هذا كله إلا نعمة منه على البشر ، وما يعود عليه من نفع ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»(5) .

والآيـات القـرآنية التي تدعـو إلى إنفاق المال عـديدة في القرآن الكريم ، من أجل ذلك لا يسعنا إلاّ أن نقول : إن الإسلام فتح لنا باب حرية العمل مهما كانت طبيعته ، لكن الملكية لله تعالى في الحقيقة ، وعلى المسلم أن يتصرف في ضوء هذا المعنى لتسعد الأمة ، ويقوى بنيانها .

والإسـلام حينما منح حرية العمل غلّفها برداء الإسلام ، فالعمل له نتائج وهذه النتائج تحت المراقبة والحساب ، ولكل عمل جزاء ، وقد بيّن الله تعالى صور العمل والجزاء على النحو الآتي :

«إنـا لا نضيع أجر من أحسن عملاً»(6) ، «مـن عمل

---

(1) النور ٣٣ .

(2) طه ٦ .

(3) المائدة ١٢٠ .

(4) المائدة ١٧ .

(5) المال والحكم في الإسلام للشهيد عبد القادر عودة ص ٢٨ .

(6) الكهف ٣٠ .

صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيّبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »[1] ، « وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »[2] ، « ولكل درجات لما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون »[3] .

وإلى جانب إثارة المسلم في مجال عقيدته وعواطفه نحو المال ، ونحو الإنفاق منه هناك رقابة دقيقة على كل تصرفاته المالية في مجال العرض والطلب مما يدل على أن الإسلام سبق كل التنظيمات الحديثة التي تنشئ إدارة المراقبات على البيع والشراء ، والمكاييل والموازين ، والخديعة والغش ، كل ذلك من أجل سلامة المجتمع .

أقول : إن الإسلام سبق هذه الإدارات منذ تكونت دولته ، وتأسست حضارته فـ «عن قيس بن أبي غرزة رضي الله عنه قال : مر النبي ﷺ برجل يبيع طعاماً فقال : يا صاحب الطعام : أسفل هذا مثل أعلاه ؟ فقال : نعم يا رسول الله ـ فقال رسول الله ﷺ من غش المسلمين فليس منهم » .

«وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ مرّ على صبرة طعام فأدخل يده فيها فقالت بللا فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله ـ يعني المطر !! قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس – من غشنا فليس منا . » « وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ إلى السوق فرأى طعاماً مصبراً ، فأدخل يده فأخرج طعاماً رطباً

---

(١) النحل ٩٧ .

(٢) التوبة ١٠٥ .

(٣) الأنعام ١٣٢ .

قد أصابته السماء ، فقال لصاحبه : ما حملك على هذا ؟ قال : والذي بعثك بالحق أنه لطعام واحد قال : أفلا عزلت الرطب على حدته ، واليابس على حدته فتتبايعون ما تعرفون ... انّ من غشنا فليس منا » .

وبعد فمن هذه النصوص ومن هذا الذي قدمناه نؤكد أن الإسلام وهب حرية العمل وأتاح الفرصة لملكية المال تحت شعار : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

ومن خلال هذا الشعار تتربى في نفس المسلم معاني الحب والعطف ، ومعاني الإخلاص والوفاء للدين ، وبذل كل مستطاع من أجل إسعاد الأمة لتشق طريقها نحو كلمة الله ليكون لها الصمود والعزة ، والكمال والرفعة ، وبذلك نستطيع أن نقرر أن المسلم دائماً في عبادة حينما يصلي وحينما يبيع ، وحينما يتاجر ، وحينما يتعامل مع الآخرين ليتحقق ما يريد من عزة الدنيا ، وثواب الآخرة : « قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين»[1] .

٤ ـ حرية الذات أو حرية النفس :

سأتناول هذا الموضوع في نقطتين : الرق ـ المرأة .

أ ـ الرّق في الإسلام :

قبل الحديث عن الرق في الإسلام نلتفت إلى الوراء قليلاً لإلقاء نظرة عابرة على تاريخ الرق قبل الإسلام ، وبخاصة في الحضارة اليونانية التي فتن بها المفكرون في الشرق والغرب . ماذا تقول

---

(١) الأنعام ١٦٢ .

هذه الحضارة في شأن الرق ؟ أترك المجال للعقاد ليعطينا فكرة عن الرق في الحضارة اليونانية قال : « الفيلسوف أفلاطون قد اعتبر نظام الاسترقاق نظاماً ملازماً للجمهورية الفاضلة أو للحكومة الإنسانية في مثلها الأعلى ، وحرم على الرقيق حقوق « المواطنة » والمساواة ، وقضى على الرقيق الذي يتطاول على سيد غريب غير سيده بتسليمه إلى ذلك السيد للاقتصاص منه على هواه ، ولا يجوز فكاكه من العقوبة إلا بمشيئته ورضاه ...

والفيلسوف أرسطو جعل الرق نظاماً من الأنظمة الملازمة لطبائع الخليقة البشرية ، فلا يزال في العالم أناس مخلوقون للسيادة ، وأناس مخلوقون للطاعة والخضوع »[1].

هذه نظرة فلاسفة اليونان بالنسبة للرقيق ، ولنا أن نتساءل ما نظرة المسيحية وهي دين المحبة بين الناس كما يقولون ؟ نستمع إلى ما كتبه القديس بولس بشأن الرقيق ، كتب رسالة إلى أهل (أفسس) « يأمر فيها العبيد بالإخلاص في إطاعة السادة كما يخلصون في إطاعة السيد المسيح »[2].

وفي ضوء هذا يتضح لنا أن العبيد طبقة بين الحيوان والإنسان ليس لهم من الحقوق أو الواجبات غير ملئ المعدة بالطعام ، وغطاء الجسد بالثوب وما عدا ذلك فهو مسلوب الحرية مفقود الإرادة .

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن نظرة الإسلام إلى الرقيق تختلف عن نظرة المسيحية أو الحضارة اليونانية كل الاختلاف ، وبيان

---

(١) أنظر الفلسفة القرآنية للعقاد ٨٨ ـ ٨٩ .

(٢) المرجع نفسه ٨٩ .

ذلك : جاء الإسلام والرق نظام اقتصادي معمول به فالرقيق يكونون الطبقة العاملة التي تشيد البنيان ، وتحرث الأرض ، وتسقي الزرع .

مـاذا صنع الإسلام في مواجهة هذه العبودية التي تتنافى مع كرامة الإنسان ؟ كانت منابع الرق قبل الإسلام عديدة ، كالحرب والخطف والوفاء بالدين والبيع .. الخ . فألغى الإسلام هذه المنابـع جميعاً التي كانت تفرز الأعداد الهائلة من الرقيق وأبقى منبعاً واحداً وهو الحرب . أي لا رق في الإسلام إلا بسبب الحرب أما ما عدا ذلك فإن أرقاء المنابع الأخرى أحرار في نظر الإسلام لا ينطبق عليهم ما ينطبق على أسير الحرب .

عـلى أن منابع الرق قبل الإسلام لم يكن لها إلا مصرف واحد هو إرادة السيد حينما يريد أن يحرر عبيده ، أما في الإسلام فقد كان الأمر على العكس مصارف الرق عديدة ، وليس له إلا منبع واحد وهو أسر الحرب .

وأسـير الحرب في الإسلام تتاح له فرص الهداية فينضم إلى إخوانه المسلمين حينما يعلن كلمة الإسلام ، وبذلك تسنح له فرصة الحرية . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن لنا أسرى من المسلمين تحت يد الكافرين فليس من العقل والعدالة أن نطلق سراح أسرانا بدون أن يطلقوا سراح المسلمين الذين وقعوا في الأسر ، إذا مبدأ المعاملة بالمثل مبدأ ليس فيه إهانة للأسير أو إهدار لآدميته .

ومـع ذلك فإن لهذا الأسير حقوقاً تدل على نبل الإسلام ، وتشير إلى أنه هو الدين الذي جاء بما لم تأت به أحدث النظم من أجل كرامة الإنسان .

وهذه صور إسلامية رائعة في معاملة هؤلاء الأسرى الأرقاء :

أ ـ فتح باب الحرية لهذا الأسير ليعمل ، وحصيلة عمله يقدمها لسيده ليفدي بها نفسه ، ويحرر ذاته « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً »[1].

ب ـ الجارية التي تلد من سيدها تعتبر أم ولد من حقها أن تسعد بالحرية .

جـ ـ أخطاء المسلمين التي تجب فيها الكفارة ، على رأسها تحرير رقبة مؤمنة .

وإلى جانب أبواب هذه الحرية أوصى الإسلام بمعاملة الرقيق معاملة طيبة فقد جمع الإسلام بالإحسان إلى الوالدين مع الإحسان إلى الرقيق في آية واحدة :

« وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى والجار الجنب ، والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم »[2] .

ومن وصايا النبيّ عليه السلام :

١ ـ « الصلاة وما ملكت ايمانكم ».

٢ ـ « لقد أوصاني حبيبي جبريل بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد » .

٣ ـ « لا يقل أحدكم عبدي أو أمتي ، وليقل فتاي وغلامي ».

٤ ـ « من لطم مملوكه فكفارته عتقه »[3].

---

(١) النور ٣٣ .

(٢) النساء ٣٦ .

(٣) انظر فصل الأسر أو الرق للعقاد في كتاب : « الفلسفة القرآنية » .

ولا عجب في هذه الوصايا أو الإرشادات في جانب الإحسان إلى العبيد والارقاء ، لأن الإسلام يحطم الحواجز بين الإنسان والإنسان ، وإذا كان منبع الإنسان واحداً فلم إذاً هذا الاختلاف الذي يدل على غباء العقل ، وضيق الفكر ، ورعونة الإنسان ؟ وحسبنا في تحطيم هذه الحواجز قوله تعالى : « يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[1].

ب ـ المرأة في الإسلام :

قبل الحديث عن حرية الذات أو النفس التي شمل بها الإسلام المرأة نلتفت إلى الوراء قليلاً لإلقاء نظرة على تاريخ حريتها قبل أن نتناول هذه الحرية التي منحها الإسلام لها ، نلتفت كما التفتنا من قبل إلى تاريخ الرق قبل الإسلام . اختلفت معاملات الأمم القديمة للمرأة في مجال حقوقها وحريتها ، ففي الصين كانت تقوم بأنجس الأعمال ، وليس لها من الحرية ما يسمح بأن تقترب من منزلة الرجل سيد البيت وسيدها ، وقد تحولت إهانتها إلى كلمات تردّد على الألسنة بمثابة أغنية يطربون لها عند سماعها . من هذه الأغنيات الأغنية التالية :

« ألا ما أتعس حظ المرأة ، ليس في العالم كله شيء أقل قيمة منها ، إن الأولاد (الذكور) يقفون متكئين على الأبواب كأنهم آلهة سقطوا من السماء ـ أمّا البنت فإن أحداً لا يسر بمولدها ... وإذا كبرت اختبأت في حجرتها تخشى أن تنظر في وجه إنسان ، ولا يبكيها أحد

(١) الحجرات ١٣ .

إذا اختفت من منزلها »[1].

وفي الهند تطالعنا أساطير (مانو) أو تشريعاته التي يقول فيها : « إن الزوجة الوفية ينبغي أن تخدم سيدها ـ زوجها ـ كما لو كان إلهاً . . وكانت لا تأكل معه بل تأكل مما يتبقى منه »[2].

وفي اليونان قال خطيبهم المشهور (ديموستين) : « اننا نتخذ العاهرات للذة ، ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية ونتخذ الزوجات ليلدن لنا الأبناء الشرعيين »[3].

وفي الرومان دولة الحضارة ، ومع ذلك فإن حضارتها لم تنعكس على المرأة ، لأن أهليتها معدومة ، وشخصيتها مشئومة ورب البيت هو كل شيء بالنسبة لبيته حاكماً ، بائعاً شارباً متصرّفاً أما المرأة فلم يكن لها وجود أو سلطان . « وقد كان القانون يعتبر الأنوثة سبباً أساسياً من أسباب انعدام الأهلية كحداثة السنّ والجنون »[4]. وعند العرب كانت الأنثى مبعث كراهة وبغض ، وميلادها ميلاد سوء وحزن : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون »[5] .

---

(١) حضارة الصين ـ ول ديورانت ـ ترجمة محمد بدران ص ٢٧٣ نقلاً عن كتاب : الإسلام والمرأة المعاصرة لبهي الخولي ص ١١ .

(٢) تاريخ العالم ترجمة الادارة الثقافية بوزارة المعارف ص ٣٩٤ نقلاً عن كتاب الإسلام والمرأة المعاصرة ٣٩٤ .

(٣) حياة اليونان ـ ول ديورانت ـ ترجمة محمد بدران ١١٤ ـ ١١٧ نقلاً عن كتاب الإسلام والمرأة المعاصرة ص ١١ .

(٤) مبادئ القانون الروماني للدكتور محمد عبد المنعم بدر ١٩٧ ـ ٢٤١ نقلا عن كتاب الإسلام والمرأة المعاصرة ١٢ .

(٥) النحل ٥٨ ، ٥٩ .

وعنـد اليهود مع أنهم أتباع دين سماوي فانهم كانوا يعتبرون « البنت دون مرتبة أخيها ، وهبطوا بها حتى سوّوها بالخدم ، وكانت لا ترث مع إخوتها الذكور وكان لأبيها أن يبيعها وهي طفلة أو دون البلوغ .. »[1].

والمسيحيـون كانوا يقولون عن النساء « إنه أولى لهن أن يخجلن من أنهن نساء ، وأن يعشن في ندم متصل جزاء ما جلبن على الأرض من لعنات »[2].

هـكـذا كانت المرأة في المجتمعات القديمة قبل الإسلام ، فلما بزغ الإسلام بجلاله وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضعت موازين الحق والعدالة ، والقيم والفضيلة انتشلت المرأة من الوضع الذي كانت فيه إلى حياة ملؤها الاعتراف بفضلها ، والتقدير لرسالتها ، والإجلال لأمومتها .

لـقـد كرمها الإسلام من الوجهة الإنسانية فهي أخت الرجل تنتسب إلى أبيه وتنتمي إلى أمه لا فرق بينه وبينها في دم النسب كما قال تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[3].

وكما قال الرسول عليه السلام « إنما النساء شقائق الرجال »[4].

فـالقـرآن الكريـم لا يعترف بهذه التفرقة الظالمة ، فالناس ذكر وأنثى ،

---

(١) الإسلام والمرأة العصرية ١٣ ـ ١٤ .

(٢) تاريخ العالم ترجمة وزارة المعارف نقلاً عن كتاب : الإسلام والمرأة المعاصرة ص ١٤ .

(٣) الحجرات ١٣ .

(٤) رواه أبو داود في كتاب الطهارة وابن حنبل ٦ : ٢٥٦ ، ٢٧٧ .

وأصل الخليقة أب واحد ينتمي إليه الناس وهو آدم عليه السلام ، والحديث يؤكد أن النساء أخوات الرجال ، وهو بهذه العبارة مؤكد للآية ، مفسر لها .

وتتطور المساواة الإنسانية بين الرجل والمرأة في مرحلة أخرى مرحلة الانتماء الروحي بعد الانتماء الدموي ، فيقرر القرآن أن الناس خلقوا من نفس واحدة ، من روح واحدة ، وخلق من هذه الروح زوجها ، وذلك في قوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها »(١) .

وتطور معنى الآخاء والمساواة إلى القمة في ظلال الروح الصافية ، والقلب الحاني والنفس المشرقة ليأوي الرجل إلى زوجته فترد إليه السكينة وتبعث في نفسه الطمأنينة ، ويشعر في ظلالها بالمودة المتينة ، والرحمة الغامرة ، وذلك في قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة »(٢) . وكرمها الإسلام وجعلها مساوية للرجل في التكاليف الدينية ، وللنساء بيعة معروفة في التاريخ الإسلامي ، نصّ عليها القرآن الكريم في قوله تعالى : «يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألاّ يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله »(٣) .

لو كانت المرأة تابعة للرجل في الإسلام لاكتفى النبي عليه السلام

---

(١) النساء ١ .

(٢) الروم ٢١ .

(٣) الممتحنة ١٢ .

ببيعة الرجال ولكنها كائن مستقل له تقديره واحترامه .

وحتى في المسؤولية والجزاء ، الرجل والمرأة سيان مصداق ذلك قوله تعالى : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » [1].

وكرّمها الإسلام من الناحية الاقتصادية ، فلها ميراث كما للرجل ، حقّا أن ميراثها أقل من ميراث الرجل ، وهذه القلة عدل ، لأن الرجل هو المسؤول عن الأسرة بل هو مسؤول عنها ، إذا احتاجت أعطاها نفقة من ميراثه ، وحتى لا تتراكم أموال الميراث عند الزوجة التي ينفق عليها زوجها إنفاق الزام ، لأنه قد يؤول ميراثها إلى زوجها أو أولادها ، وفي هذا إجحاف بحق أخيها ، ومن ثمّ كان لا بد من التوازن كما شرع الله « للذكر مثل حظ الأنثيين » [2] .

ومهر الزوجة ملك لها ، وليس للزوج أو للأب أو ولي الأمر أي سلطان عليها ، فهي حرة التصرف في ضوء ما أعلنه القرآن الكريم : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » [3].

ويرفع ابن حزم صوته في ملكية الزوجة لمهرها وحرية التصرف فيه ليسمعنا رأيه فيقول : « لا يجوز أن تجبر المرأة على أن تتجهز إلى الزوج بشيء أصلاً لا من مالها ولا من صداقها ، والصداق كله لها تفعل فيه ما شاءت لا إذن للزوج في ذلك ولا اعتراض » [4].

وفي الفقه الإسلامي في ضوء مذاهبه المتعددة إجماع على أن

---

(١) النساء ١٢٤ .
(٢) النساء ١١ .
(٣) النساء ٤ .
(٤) المحلى جـ٩ : ٥٠٧ ، ٥١١ نقلاً عن كتاب الإسلام والمرأة المعاصرة ص ٢٥ .

المرأة لها حق التصرف في مالها ، ولها أن تمارس التجارة ، وأن تخاصم ، وتبيع وتشتري ، وتوصي ، وتهب ، وتأخذ وتعطي سواء باشرت ذلك بنفسها أو عن طريق وكيلها .

ويعجب الإمام محمد عبده لهذه الحرية التي أعطاها الإسلام المرأة فيقول ما نصه : « هذه الدرجة التي رفع الله النساء إليها لم يرفعهن إليها دين سابق ، ولا شريعة من الشرائع ، بل لم تصل إليها أمة من الأمم مثل الإسلام ولا بعده .

وهذه الأمم الأوروبية التي كان من تقدمها في الحضارة أن بالغت في احترام النساء وتكريمهن ، وعنيت بتربيتهن وتعليمهن الفنون والعلوم لا تزال دون هذه الدرجة التي رفع الإسلام النساء إليها ، ولا تزال قوانين بعضها تمنع المرأة من حق التصرف في مالها بدون إذن زوجها ، وغير ذلك من الحقوق التي منحتها إياها الشريعة الإسلامية من نحو ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن . وقد كان النساء في أوروبا منذ خمسين سنة بمنزلة الأرقاء في كل شيء كما كن في عهد الجاهلية عند العرب ، بل أسوأ حالاً »[1] .

وكرمها الإسلام من الناحية الاجتماعية :

فمن حقها أن تقبل من يطلبها للزواج أو ترفضه ، وليس لوليها الحق في أن يفرض عليها زوجاً بعينه لأن هذا مخالف لحرية الاختيار التي قررها لها الإسلام . روى أن خنساء بنت جذام زوّجها أبوها وهي كارهة ، وكانت ثيّبا ، فأتت رسول الله ﷺ فرد زواجها . وفي

(١) تفسير المنار ٣٧٥ ، ٣٧٦ نقلاً عن كتاب الإسلام والمرأة المعاصرة ٢٦ خ.

رواية البخاري : « إذا زوج ابنته وهي كارهة فنكاحه مردود »[1].

وللفقيه العلامة الشيخ محمود شلتوت رأي اجتهادي في تقرير حق المرأة في مباشرة حق زواجها بنفسها فيقول : « ونحن إذا رجعنا إلى القرآن في هذه المسألة وجدناه يضيف هذا التصرف إلى المرأة نفسها ، انظر قوله تعالى في سورة الأحزاب : « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين »[2] ، ويقول في سورة البقرة : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره »[3] . ويقول : « فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف »[4] .

وهذه الآيات ظاهرة في أن زواج المرأة ورجوعها إلى زوجها مضاف إليها صادر عنها من غير أن يتوقف على مباشرة وليّها لهذه التصرفات »[5].

وبعد ، فإن حرية المرأة في الإسلام قضية لا يختلف فيها اثنان ، ولا يتسع الموقف هنا لعرض الصور الرائعة التي احتفظ بها تاريخنا الإسلامي عن دور المرأة في المجتمع الإسلامي ومكانتها من الناحية العلمية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والأدبية .

وكل ما أستطيع أن أقوله إن الحرية في الإسلام امتدت إلى كل شيء حتى الإحساس بالحيوان والرفق به حرية أخرى من نوع جديد وما

---

(١) انظر البخاري : النكاح ٤٢ .

(٢) الأحزاب ٥٠ .

(٣) البقرة ٢٣٠ .

(٤) البقرة ٢٣٤ .

(٥) رسالة القرآن والمرأة للشيخ شلتوت نقلاً عن كتاب : الإسلام والمرأة المعاصرة ٢٨ .

أروع قول الرسول عليه السلام « دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً »[1].

العلم بين العقل والوحي :

ليس هناك دين رفع من شأن العلم كما رفع دين الإسلام ، وقد تعددت كلمة علم في القرآن الكريم فشغلت من « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » ١٣ صفحة وحاولت أن أقوم بإحصاء عددي لمادة هذه الكلمة التي جاءت بصور مختلفة ، وكلها تدور حول العلم ومشتقاته فوجدت صعوبة في ذلك .

علام يدل هذا ؟ ألا يدل على أن القرآن الكريم ـ وان كتاب هداية – أتاح للعقل البشري أن يستعمل كل ما يملك من طاقة في سبيل الحصول على العلم والمعرفة ، إن الكون كله كتاب كبير ، إذا قلبت صفحاته أدهشتك أسراره ، وغمرتك عجائبه ، واستولت على نفسك غرائبه .

وقد دعا القرآن الكريم أن ننظر في هذا الكتاب بوعي وتدبر ، وفهم وتفكر : «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك[2] » . والفكر هو طريق العلم .

ولم يكتف القرآن بقراءة كتاب هذا الكون المفتوح وما حوى

---

(١) مسند ابن حنبل ٤ : ٢٥١ .

(٢) آل عمران ١٩٠ ـ ١٩١ .

بل وجه الإنسان إلى ذاته إلى نفسه ليقف على أسرارها ، وملكها العجيب « وفي أنفسكم أفلا تبصرون »[1]. وهؤلاء الذين أيقظوا عقولهم من أجل أن تسبح في ملكوت السماوات والأرض ليسجلوا أسرار الوجود أو النفس هم العلماء ، هم العلماء الذين فصّل الله لهم الآيات « ونفصل الآيات لقوم يعلمون »[2] ، وهم العلماء الذين رفع الله قدرهم ، وأعلى شأنهم ، وأعز مكانتهم « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »[3]. « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »[4] وهم العلماء الذين يطلبون المزيد ، ويجرون وراء الحقيقة ، ولا ينتهون في ميدان العلم إلى مرحلة « وقل ربي زدني علماً »[5] « ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله »[6] وهم العلماء الذين يخشعون إجلالاً لآيات الله ، فيسجدون بعقولهم وقلوبهم إيماناً بهذا الإبداع ، وتسليماً لهذه القدرة ، « إنما يخشى الله من عباده العلماء »[7].

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد هذه المقدمة في إشارات القرآن إلى العلم هل القرآن كتاب علم إلى جانب كونه كتاب هداية.؟ قضية ثار حولها الجدل في عصرنا الحاضر عصر العلم والمدنية ، عصر الإزدهار الفكري .

في نظري أن القرآن الكريم الذي يشتمل على ستة آلاف آية

---

(١) الذاريات ٢١ .
(٢) التوبة ١١ .
(٣) المجادلة ١١ .
(٤) الزمر ٩ .
(٥) طه ١١٤ .
(٦) لقمان ٢٧ .
(٧) فاطر ٢٨ .

نزلت في ثلاث وعشرين سنة لا تختلف آية منها عن أخرى في المستوى البلاغي ولا تتعارض آية منها مع آية أخرى فيما اشتملت عليه ، هذا القرآن تحتوي آياته الكثيرة على إشارات علمية لينطلق من خلالها العقل الإنساني في الكون الرحب من أجل التعرف على أسراره .

ولو نظرنا إلى معظم آيات العبادات والمعاملات ، وجدناها قليلة بالنسبة لآيات الكون مما يزيدنا إقناعاً بأن القرآن الكريم فتح باب العقل لعلوم الدنيا والدين .

أما علوم الدين فإليكم نبذة عنها في ضوء ما كتبه ابن خلدون في مقدمته :

١ ـ علم القراءات :

قال ابن خلدون : «القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وهو متواتر بين الأمة إلا أن الصحابة رووه عن رسول الله ﷺ على طرق مختلفة في بعض ألفاظه ، وكيفيات الحروف في أدائها ، وتنوقل ذلك واشتهر إلى أن استقرّت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضاً بأدائها ، واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير ، وصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة ، وربما زيد بعد ذلك قراءات أخر لحقت بالسبع إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل»[1].

٢ ـ التفسير :

قال : «اعلم أن القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ...

---

(١) المقدمة ٤٠٢ .

وكان ينزل جملا جملا ، وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الواقع . ومنها ما هو في العقائد الإيمانية ، ومنها ما هو في أحكام الجوارح ، ومنها ما يتقدم ، ومنها ما يتأخر ويكون ناسخاً له .

وكان النبي ﷺ يبين المجمل ، ويميز الناسخ من المنسوخ ، ويعرفه أصحابه فعرفوه ، وعرفوا سبب نزول الآيات ، ومقتضى الحال منها منقولاً عنه »[1].

٣ ـ علوم الحديث :

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة ، لأن منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله بعباده وتخفيفاً عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها »[2] .

ومن علوم الأحاديث النظر في الأسانيد ، ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط .

٤ ـ علم الفقه :

قال : «الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة ، وهي متلقّاة من الكتاب والسنة ، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة ، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه» إلى أن يقول : «ثم عظمت أمصار الإسلام ،

---

(١) المرجع نفسه ٤٠٣ .

(٢) البقرة ١٠٦ .

وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب ، وتمكن الاستنباط ، وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلما ... وانقسم الفقه إلى طريقتين : طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز ... ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية وجعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والإجماع »[1] .

٥ ـ علم الفرائض :

« وهو معرفة فروض الوراثة ، وتصحيح سهام الفريضة ... وهو يحتاج إلى الحسبان فجعلوه فناً مفرداً ... وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول ، والوصول به إلى الحقوق في الوراثات بوجوه صحيحة يقينية عندما تجهل الحظوظ ، وتشكل على القاسمين»[2] .

٦ ـ أصول الفقه :

قال ابن خلدون : « اعلم أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية ، وأجلها قدراً ، وأكثرها فائدة وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة المبينة له ... ثم ينزل الاجماع منزلتهما لاجماع الصحابة على النكير على مخالفيهم ، ولا يكون ذلك إلا عن مستند ، لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة

---

(١) المقدمة ٤١٠ ـ ٤١١ .

(٢) المرجع نفسه ٤١٧ .

الجماعة فصار الإجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات ... ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة ، فإذا هم يقيسون الأشياء بالأشباه منهما ، ويناظرون الأمثال بالأمثال باجماع منهم ... وصار ذلك دليلاً شرعياً باجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الأدلة» (١)

٧ ـ الخلافيات :

قال ابن خلدون : « اعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافاً لا بد من وقوعه ... واتسع ذلك في الملة اتساعاً عظيماً » ، وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاءوا منهم ...

وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب إمامه ، تجري على أصول صحيحة ، وطرائق قويمة يحتج بها كل على مذهبه الذي قلده ، وتمسك به « وهو لعمري علم جليل الفائدة في معرفة مأخذ الأئمة وأدلتهم ، ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه ». (٢)

٨ ـ الجدل :

« وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً ، وكل واحد من المناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج ،

---

(١) المرجع نفسه ٤١٨ .

(٢) المرجع نفسه ٤٢١ .

ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ . فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظرون عند حدودها في الرد والقبول ، وكيف يكون حال المستدل والمجيب »[1].

٩ ـ علم الكلام :

قال ابن خلدون : « هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة والمنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة ولابن خلدون في العقل تجاه هذه الكائنات منهج علمي عظيم يسلمك إلى التوحيد » في يسر وسهولة يقول :

« ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كله ، وسفّه رأيه ، واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها ، والأمر في نفسه بخلاف ذلك ، والحق من ورائه ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات ، ويسقط من الوجوه عنده صنف المسموعات . وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به ، لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم ، وطبيعة إدراكهم ، ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات ، وساقطة لديه بالكلية »[2].

---

(١) المرجع نفسه ٤٢٢ .

(٢) المقدمة ٤٢٤ .

١٠ ـ علم التصوف :

قال ابـن خلـدون : هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ... فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة .

١١ ـ علم تعبير الرؤيا :

قال ابن خلدون : «هذا العلم من العلوم الشرعية ، وهو حادث في الملة عندما صارت العلوم صنائع ، وكتب الناس فيها .

وأمّـا الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجوداً في السلف كما هو في الخلف ..... والرؤيا موجودة في صنف البشر على الاطلاق ، ولا بد من تعبيرها ، فقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا كما وقع في القرآن[١] ... وقال ﷺ : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » ويفرق ابن خلدون بين الرؤيا الصالحة واضغاث الأحلام الكاذبة فبيّن أنّ أضغاث الأحلام الكاذبة صور في الخيال حالة النوم ، لكن إذا كانت تلك الصور متنزلة من الروح العقلي المدرك فهي رؤيا ، وإن كانت مأخوذة من الصور التي

---

(١) الآيات ٤٣ ـ ٤٩ من سورة يوسف .

في المحافظة التي كان الخيال أودعها إياها منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام ..

وأما معنى التعبير فاعلم أن الروح العقلي إذا أدرك مدركه ، وألقاه إلى الخيال فصوره فإنما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء كما يدرك معنى السلطان الأعظم فيصوره الخيال بصورة البحر أو يدرك العداوة فيصوّرها الخيال في صورة الحيّة ، فإذا استيقظ وهو لم يعلم من أمره إلا أنه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد أن يتيقن أن البحر صورة محسوسة وأن المدرك وراءها ، وهو يهتدي بقرائن أخرى تعين له المدرك »[1] .

هذه العلوم القرآنية التي استمدّها علماء الإسلام من القرآن الكريم ، ونبغوا فيها نبوغاً عظيماً ، ونتاجهم الدراسي من هذه العلوم يملأ المكتبة الإسلامية بمختلف المؤلفات والمصنفات .

ولا أنسى أن أضيف إلى هذه العلوم القرآنية علوم اللسان لأنها ضرورية لمعرفة علوم القرآن التي سبق الحديث عنها ، وقد أشار إليها ابن خلدون في الفصل السادس والأربعين من مقدمته حيث يقول : « فصل في علوم اللسان العربي ، أركانه الأربعة وهي اللغة ، والنحو ، والبيان ، والأدب ، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغاتهم ، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة »[2] .

---

(١) المقدمة ٤٥٠ .

(٢) المقدمة ٥١٤ .

وهذه العلوم القرآنية التي سجلناها في هذا البحث عند التحليل نجد أنها ثمرة من ثمار التقاء العقل بالوحي ، هذا الالتقاء الذي أدى إلى هذه النهضة الفكرية الإسلامية ، والتي بسببها ما زال العقل الإسلامي يعيش في محراب القرآن إلى وقتنا الحاضر ، وإلى أن يرث الأرض ومن عليها .

إن الدراسات القرآنية في المكتبة الإسلامية حافلة بكل الثمار الفكرية التي عمل على انضاجها الوحي والعقل ، والتي كان لها دور كبير في بعث الحضارات ، وإنارة الظلمات . بقي أن نعرف ما أثر العقل والوحي في المعارف الإنسانية أو بعبارة أخرى في مقومات الحضارة الفكرية للأمة الإسلامية .

بين يدي كتاب : « معترك الإقران في إعجاز القرآن » لجلال الدين السيولي ينص في هذا الكتاب على أن القرآن الكريم أشار إلى ألوان المعرفة ، وأنواع العلوم التي يحتاجها الإنسان ، واستنبطوا من هذه الإشارات أن القرآن الكريم فيه من الأسرار العلمية والكونية الكثير : فنظر « قوم إلى ما فيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة في الليل والنهار ، والشمس والقمر ومنازله ، والنجوم والبروج وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت » ... أمّا الطب فمداره على حفظ النظام والصحة ، استحكام القوة ، وذلك انما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيّات المتضادة ، وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله : « وكان بين ذلك قواماً »[1] .

(١) الفرقان ٦٧ .

وعرفنا بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله ، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله : « شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس »(١) .

وأمّا الهندسة ففي قوله تعالى : « انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب »(٢) ، فإن فيه قاعدة هندسية وهو أن الشكل المثلث لا ظل له(٣) .

وأمّا النجّامة (علم الفلك) ففي قوله : « أو أثارة من علم »(٤) وقد فسّره بذلك ابن عباس .

وفي القرآن : أصول الصنائع ، وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها كالخياطة في قوله : « وطفقا يخصفان عليهما »(٥) .

والحدادة : « آتوني زبر الحديد »(٦) « وألنا له الحديد »(٧) .

والبناء : في آيات .

والنجارة : « واصنع الفلك بأعيننا »(٨) .

والغزل : « نقضت غزلها »(٩) .

والنسج : «كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً »(١٠) .

---

(١) النحل ٦٩ .

(٢) المرسلات ٣٠ ، ٣١ .

(٣) انظر إعجاز القرآن ٢٠ والتفسير والمفسرون للمرحوم الشيخ الذهبي ص ٤٨١ .

(٤) الأحقاف ٤ .

(٥) الأعراف ٢٢ ، طه ١٢١ .

(٦) الكهف ٩٦ .

(٧) سبأ ١٠ .

(٨) هود ٣٧ .

(٩) النحل ٩٢ .

(١٠) العنكبوت ٤١ .

والفلاحة : « أفرأيتم ما تحرثون »[1] . الآيات .

والصيد : في آيات .

والغوص : «كل بناء وغواص »[2] . « وتستخرجوا منه حلية تلبسونها »[3] .

والصياغة : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار»[4] .

والزجاجة : (أي صناعة الزجاج) « صرح ممّرد من قوارير»[5] .

« مصباح المصباح في زجاجة »[6] .

والفخّارة : « فأوقد لي يا هامان على الطين »[7] .

والملاحة : « أما السفينة »[8] . الآية .

والكتابة : « علم بالقلم »[9] .

والطبخ : « بعجل حنيذ »[10] .

والبيع والشراء : في آيات .

والصبغ : « صبغة الله »[11] « جدد بيض وحمر»[12] .

والكيالة والوزن : في آيات .

---

(١) الواقعة ٦٣ .
(٢) ص ٣٧ .
(٣) النحل ١٤ .
(٤) الأعراف ١٤٨ .
(٥) النمل ٤٤ .
(٦) النور ٣٥ .
(٧) القصص ٣٨ .
(٨) الكهف ٧٩ .
(٩) العلق ٤ .
(١٠) هود ٦٩ .
(١١) البقرة ١٣٨ .
(١٢) فاطر ٢٧ .

والرمي : « وما رميت إذ رميت »(١) .

وفيه من أسماء الآلات ، وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء »(٢) .

في ضوء هذه الآيات التي تشير إلى العلم ، والصناعات ، والفنون والآلات ما يدل على أنّ القرآن الكريم كما يقول بعض الفلاسفة المعاصرين : «لم يكن كتاب مواعظ أخلاقية فقط أو تاريخاً أنزل كعبرة من قرون ماضية ، وإنما هو كتاب ميتافيزيقي ، وأخلاقي ، وعملي ، وضع الخطوط الرئيسية للوجود كله ، فهو كتاب الكون منذ نشأته إلى فنائه »(٣) .

ومن العلماء المعاصرين الذين يرون أن القرآن الكريم كشف العلم الحديث كثيراً مما أشار إليه الأستاذ عبد الوهاب خلاف فقد بيّن أن القرآن الكريم : « جاء بآيات تفهم منها سنن كونية ، ونواميس طبيعية كشف العلم الحديث في كل عصر براهينها ، ودلّ على أن الآيات التي لفتت إليها من عند الله ، لأن الناس ما كان لهم بها من علم ، وما وصلوا إلى حقائقها ، وإنما كان استدلالهم بظواهرها ، فكلما كشف البحث العلمي سنة كونية وظهر أن آية في القرآن الكريم أشارت إلى هذه السنة قام برهان جديد على أن القرآن من عند الله :

---

(١) الأنفال ١٧ .

(٢) انظر إعجاز القرآن للسيوطي ١ : ٢١ – ٢٢ .

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د . علي سامي النشار جـ ١ ص ٢ نقلاً عن كتاب النزعة العقلية في تفكير المعتزلة ١٨٠ .

« قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ، سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »(١) .

ومن الآيات التي لفتت النظر إلى البحث العلمي قوله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء »(٢) .

وقوله : « أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حيّ »(٣) .

وقوله : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين(٤) »(٥) .

وقبل أن أنهي هذه النقطة أحب أن أبيّن أن للعقاد رأياً في مسائل العلم التي أشار إليها القرآن الكريم فهو يرى أن القرآن الكريم كتاب عقيدة ، ولا يطلب من كتب العقيدة أن تمدّهم بتفصيلات العلوم كلما ظهر مسألة منها لجيل من أجيال البشر ، ويبرهن على قوله بأنه أخطأ أناس حينما فسروا السماوات السبع بالسيارات السبع في المنظومة

---

(١) فصلت ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) النمل ٨٨ .

(٣) الأنبياء ٣٠ .

(٤) المؤمنون ١٢ – ١٤ .

(٥) انظر علم أصول الفقه ٢٩ – ٣٠ .

الشمسية ثم ظهر أنها عشر لا سبع ، وأن الأرضين السبع إذا صح تفسيرهم لا تزال في حاجة إلى التفسير ...

«كلا لا حاجة بالقرآن الكريم إلى مثل هذا الادعاء ، لأنه كتاب عقيدة ، يخاطب الضمير وخير ما يطلب من كتاب العقيدة في مجال العلم أن يحث على التفكير ، ولا يتضمن حكماً من الأحكام يشل حركة العقل في تفكيره أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ما استطاع حيثما استطاع »[1] .

ونحن لسنا مع العقاد في هذا الاتجاه لأن القرآن الكريم يعطينا مفتاح المعرفة لنحاول أن نفتح بطريق عقولنا الأبواب المغلقة في الحياة وفي الطبيعة وفي كل ما يتعلق بمصلحة الإنسان .

وكما قلنا سابقاً أن آيات العبادة ، وآيات المعاملات المتعلقة بها قليلة بالنسبة لهذا الفيض الزاخر من آيات الله في الكون ، وفي البشر ، وفي الخلق ، والمخلوقات ، ثم ما قيمة التفكير في هذه الآفاق ، آفاق السماوات والأرض ، آفاق النفس البشرية إذا لم يكن هناك ثمرة لهذا التفكير ، وما الثمرة إلا العلم والمعرفة تأتي نتيجة اجتهاد بعد طول النظر ، وإدمان الفكر قد تكون خطأ ، وللمجتهد المخطئ أجر ، وقد تكون صواباً وللمجتهد المصيب أجران ، وحينما يوضع للنظرية المتطورة المتفقة مع إشارات القرآن تفسير آخر فالعيب ليس عيب القرآن ، ولكنه عيب النظرية ، «وإذا ظهر خطأ النظرية ظهر خطأ فهم الآية على ذلك الوجه لا خطأ الآية نفسها كما يفهم حكم من

---

(١) الفلسفة القرآنية ١٥ – ١٦ .

آية ، ويتبيّن خطأ فهمه بظهور دليل على هذا الخطأ »[1] .

وقبل أن نختم الحديث في هذه النقطة أحب أن أبيّن أن المسلمين من منطلق قرآنهم اتجهوا إلى العلم ليأخذوه أينما وجد ، وتفتحت عقولهم إلى علوم غيرهم من هذه العلوم المادية فنقلوها من غيرهم ، وأضافوا إليها من عقولهم المشرقة وأفكارهم النيّرة ما كان زاداً لا ينضب للانسانية جمعاء في الشرق أو الغرب في كل العصور إلى أن قامت النهضة الأوروبية وهي في حقيقة أمرها أشعلتها شرارة الفكر الإسلامي ، وذلك ما أستبينه في النقطة التالية :

أثر العرب في العلوم المادية :

حينما نقلب صفحات كتاب « الإسلام والحضارة العربية » للعالم المؤرخ محمد كرد علي ماذا نجد ؟ نجد أن عمر بن عبد العزيز أمر بنقل كتاب : « أهرن بن أعين في الطب إلى اللغة العربية .

وخالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفى ٨٥ هـ أمر بترجمة كتب الفلاسفة والنجوم والكيمياء والطب ، والحروب والآلات والصناعات من اللسان اليوناني ، والقبطي والسرياني – وكانت الترجمة – أحياناً – من لغة اليونان إلى العبرانية ومن العبرانية إلى السريانية ، ومن السريانية إلى العربية ولم يقف الأمر عند هذا الحد فخالد بن يزيد أول من جمعت له الكتب ، وجعلها في خزانة في الإسلام ، والأرجح أنها كانت في دمشق .

---

(١) علم أصول الفقه ٣٠ .

وجاء العباسيون بعد الأمويين فكان همهم أن يجمعوا المخطوطات اليونانية وأن ينقلوا إلى العربية أشهر كتب العلم والطب والفلسفة اليونانية ...

وبفضل المدارس العربية في قرطبة عرف الغرب النصراني نفسه فلسفة أرسطو(١) ويشير أحد مفكري الغرب « دوسن » بالفكر الإسلامي فيقول : « ان المدنية الأوروبية بل المدنية الغربية كلها مدينة للمسلمين بميراث حكمة الأقدمين ، وأن فتوحات العرب في امبراطورية الإسلام من القرن السابع إلى الخامس عشر الميلادي ، لتعد إحدى عجائب التاريخ » .

« ومن المدهش أن يصبح العرب – وكانوا أول أمرهم على الفطرة – عنصراً فاتحاً ويغدو سادة نصف العالم في مائة عام » .

« ومن أشد العجب حماستهم العظيمة، وسرعتهم البالغة في تحصيل العلوم ، وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم حتى وصلوا إلى مستوى عال في مائة سنة بينما نرى الجرمانيين لما فتحوا الامبراطورية الرومانية قضوا ألف عام قبل أن يقضوا على التوحش ، وينهضوا لاحياء العلوم »(٢) .

ان إلقاء نظرة واحدة عابرة على هذا النص توضح لنا أنه ما وصل المسلمون إلى هذا الذي أعجب المفكر إلاّ من خلال قرآنهم العظيم فهو الذي خلق فيهم روح العلم ، وهو الذي فتح لهم نوافذ المعرفة ، وهو الذي صوّر هؤلاء الذين لا ينتفعون بالعلم ، ولا يبحثون فيه ،

---

(١) انظر الإسلام والحضارة العربية ١٧٢ – ١٧٣ .

(٢) الإسلام والحضارة العربية ١ : ١٧٤ .

ولا يحاولون الكشف عن كنوزه وخباياه كالحمار الذي لا يعرف ما فوق ظهره :

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً »[1] .

ومن هذه القاعدة صحّ ما قاله « شاخت » « أن الفكر الإسلامي بدأ من الوحي الدّيني ، وتأثر بعوامل شتى ، ثم أخذ هذا الفكر يشق طريقه بقواه الخاصة »[2] .

وبعد ، لست في حاجة إلى أن أكرر القول بأن الفكر الإسلامي مزيج من الوحي والعقل ، وقد أدّى هذا المزج إلى تميز هذا الفكر بأنه ارتباط بالدنيا والآخرة ، ارتباط بالأرض والسماء ارتباط بالجسم والروح ارتباط بكل القيم التي تنهض بالإنسان ، وتصل به إلى أوج الكمال .

نعم ، ان الفكر الإسلامي حينما عايش الوحي ، انبثقت منه معاني الخير ، معاني الخلق ، معاني العدل ، معاني الرحمة .

وحينما عايش العقل انبثقت منه هذه الحضارة الإسلامية العظيمة التي كان لها أكبر الأثر في حضارة الغرب ، وذلك ما سأتناوله في النقطة التالية .

---

(١) الجمعة ٥ .

(٢) تراث الإسلام ٢٠٢ .

أثر الحضارة الاسلاميّة في الحضارة الأوروبيّة

ان البحث يطول عند استقصاء هذه الآثار ، ولكن نشير فقط في إيجاز إلى فضل هذه الحضارة على غيرها ، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق .

يذكر المؤرخون أنه « ما كاد القرن العاشر الميلادي يتبلج حتى كانت المدنية الإسلامية قد انتشرت في أسبانيا كلها ...

ولما سقطت مدينة طليطلة في حكم الممالك النصرانية انتشرت حضارة الإسلام في عامة أصقاع أوروبا »[1] .

« ومن أعظم ما خلفه مسلمو أسبانيا للمدنية الغربية ما كتبه فلاسفة المسلمين ، وكان هؤلاء الفلاسفة همزة الوصل في نقل فلسفة أرسطو إلى الغرب ، وكان الإنجليزي أو الإسكتلندي يضطر إذا أراد أن يدرس الفلسفة اليونانية أن يرحل إلى طليطلة ليدرسها باللغة العربية على يد شيوخ المسلمين » .

ويقول رينو : « إن النهضة الحقيقية في أوروبا لم تبدأ إلا منذ القرن الثاني عشر أي منذ زحف أهل الغرب لقتال أهل الشرق ،

(١) الإسلام والحضارة العربية ١ : ٢٢٠ .

ووقفت النصرانية والإسلام وجهاً لوجه فوقع الاحتكاك بين المسلمين والنصارى وأفاق الفرنسيون والإنجليز والألمان من رقدتهم ، ونفضوا عنهم غبار الخمول ، ووجدوا من الضرورة الاشتراك في المدنية الإسلامية »[1] .

ويقول جوتيه : « ان الشريف الإدريسي الجغرافي كان أستاذ الجغرافيا الذي علم أوروبا هذا العلم لا بطلميوس ، ودام معلماً لها مدة ثلاثة قرون ، ولم يكن لأوروبا مصوّر للعالم إلا ما رسمه الإدريسي ».

وقال ساريتو : « ان ما أتت به الحضارة الإسلامية في باب العلم ولا سيما العلوم وتطبيقها أعظم بكثير مما أتت به في هذا السبيل مملكة بيزنطة ... ان الحضارة الإسلامية أكملت الطرق العلمية ، وأغنت بأبحاثها جميع فروع العلم اليوناني من جبر ، وحساب مثلثات ، وفلك ومساحة ، ومعادن وطبيعة وكيمياء وطب ، وأقامت مراصد فلكية ، ومخابر وخزائن كتب ... وعلى هذا كانت حضارة الإسلام محطة مهمة في التمدين بين العالم اليوناني الشرقي وأوروبا في القرون الوسطى »[2] .

أهم منجزات العرب في مجال العلم :

عقد لهذه المنجزات فصلاً قيماً المؤرخ محمد كرد علي في كتابه : « الإسلام والحضارة العربية » نقتطف منه في إيجاز هذه اللمحات :

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ١ : ٢٢١ .

(٢) المرجع السابق ٢٢٠ – ٢٢٢ .

١ ـ علم الفلك :

نبغوا فيـه حتى قـال بيكـورد مين : « نشأ توسع علم الفلك عند العرب من توسع الرياضيين منهم في الحساب لأنهم اخترعوا أساس حساب المثلثات وحققوا طول محيط الأرض .

٢ ـ اكتشاف منابع النيل كما ذكر ذلك ابن فضل الله العمري في كتاب « مسالك الأبصار » .

٣ ـ عرفوا بعقولهم أن في الأرض أقطاراً لم تعرف حتى قال أحد عارفيهم قبل كولمبس بقرن ونصف : « لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفاً من الجهة الأخرى ، وإذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا من أنواع وأجناس أخرى ».

٤ ـ اختراع طريقة الكتابة بحروف بارزة من أجل العميان اخترعها زين الدين الآمدي ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) وكان فقد بصره في أول عمره فكان كلما اشترى كتاباً لخزانة كتبه لف ورقة على شكل حرف من الحروف وألصقها في الكتاب ، وكانت هذه الحروف هي التي يستعين بها على معرفة ثمن الكتاب ، وكان أبو الفرج بن أبي الفتح كشاجـم يقرأ نقش فص الخاتم باللمس خاصة دون الرؤية .

ولا ننسى أن ابن سيده ألف المخصص وهو أعمى .

٥ ـ الطيران :

حاوله عباس بن فرناس حكيم الأندلس .

٦ ـ الطباعة :

وسبق العـرب إلى معرفـة الطبـاعـة فألف أبـو بكـر القدسي

الأندلسي كتاباً في الخواص وصنعة الأمدّة ، وآلة الطبع غريب في معناه كما ذكر ذلك لسان الدين بن الخطيب في (الاحاطة).

٧ ـ ومن مخترعات العرب طريقة عمل الجليد الصناعي ولم تعرف أوروبا سر هذه الصناعة إلا في النصف الأول من القرن السادس عشر .

٨ ـ صناعة الورق :

وأدخل العرب على أوروبا الورق المعمول من القطن والورق الرخيص الثمن ، قال جوتيه : « إن العرب علمونا صنع الكتاب ، وعمل البارود ، وإبرة السفينة فعلينا أن نفكر ماذا كانت نهضتنا لو لم يكن من ورائها هذه المخلفات التي وصلتنا من المدنية العربية »(١) .

ولا أستطيع أن أعدد ما قام به العرب في مجال العلم ، وما اخترعوه ، واكتشفوه وإنما ذكرت ما ذكرت على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر .

وكل الذي أريد أن أؤكده في هذا المقام أن الحضارة الإسلامية ازدهرت بالإسلام ، وفضلها على حضارة أوروبا في القرون الوسطى لا ينكر ، وأن حضارة أوروبا في القرون الوسطى خطوة أولى على طريق الحضارة الغربية في عصرنا الحاضر .

ولنا بعد الذي قدمناه عن الحضارة الإسلامية أن نتساءل : ما واقع هذه الحضارة في عالمنا الإسلامي المعاصر ؟ ذلك ما سأحاول الإجابة عنه في النقطة التالية .

---

(١) انظر الإسلام والحضارة العربية ١ : ٢٢٣ ـ ٢٢٧ .

صراع الحضارات

في عالمنـا المعاصر ثلاث حضارات : الحضارة الإسلامية ـ الحضارة الغربية ـ الحضارة الشرقية (الكتلة الشرقية) ومقومات كل حضارة تختلف عن الأخرى .

أما الحضـارة الإسلامية فقد أشبعناها بحثاً ، وبيّنا أنها كانت شعلة مضيئة لأوروبا وغيرها حينما كان للمسلمين دولة وسلطان .

أمـا في عالمنا الحاضر فإن الإسلام غريب بين أهله ، وما دامت الصلة مقطوعة بين الجسم والروح فإن الحضارة الإسلامية في عالمنا الإسلامي زاحمتها الحضارة الغربية وغزتها في عقر دارها ، فأصبحت كلمة جرّدت من معناها ، وإذا أطلقناها فإنما نرتفع بها عن حالة المسلمين الراهنة لنعيش في ذكرياتها يوم أن كان لها دولة ومكان .

وواقع المسلمين الآن لا يحتاج إلى شرح أو بيان ، بل من بلاغة القول أن نسكت لأن السكوت في هذه الحالة من ذهب ، لأن كلاًّ منا رضي أم لم يرض يعيش وفق معايير لا تمت إلى حضارتنا الإسلامية بصلة .

والحديث عن واقعنا الإسلامي يطول ويطول ، وما أكثر العبارات الرنانة التي يصدرها الوعاظ والخطباء على منابر المساجد لترثي حالة المسلمين في تفككهم وضعف كلمتهم وذهاب سلطانهم .

حقـاً ، كانت هناك علامات تصحيح على الطريق الخاطئ الذي سار فيه المسلمون بعد أن غزاهم الاستعمار ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، علامات تتمثل في صيحات زعماء المسلمين الذين يحذرون من دسائس المستعمرين ، وطبائع المستبدين أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وغيرهم ولكن مع ذلك مع هذه الأصوات الإصلاحية

فإن حرب الاستعمار حرب شرسة .

إن الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي كان يعمل جاهداً على أن يثبت أقدامه في ديار المسلمين لينشر سمومه التي تتكاثر وتتعقد لتصبح أمراضاً متوطنة قتالة .

إن الاستعمار يحمل معه مظاهر حضارته الفكرية والثقافية لينشرها بين المسلمين من أجل فقد ثقتهم بحضارتهم الإسلامية الأصيلة وقد نجح في ذلك إلى حد كبير فإلى جانب مدارس التبشير كانت هناك مدارس الالحاد ليقطع الصلة بين المسلمين ودينهم ومن هذه المدارس : « المدرسة العظمى التي أسست في الهند لنشر تعاليمه ، وبث مبادئها في نفوس النشء المسلم ، فضل كثير منهم وأشربوا روح الإلحاد في قلوبهم ، ولا سيما أولاد الأمراء الذين كان معظم طلاب تلك المدرسة منهم ، وهال ذلك السيد جمال الدين الأفغاني فألف رسالته المشهورة « الرد على الدهريين » وانتشرت الرسالة في طول البلاد وعرضها ومن عبارات السيد جمال الدين الأفغاني التي علل فيها تأليف رسالته قوله : « انهم وجدوا أن الديانة الإسلامية تطلب من أتباعها أن يكونوا أصحاب الشوكة والسلطان في أوطانهم ، ولاحظوا أن ذلك هو طبيعة الإسلام التي لا يمكن انسلاخه عنها ولا انتزاعها من فطرة أبنائه ، ففكروا في أمر يضعف أثر هذه العقيدة في نفوسهم فرأوا أن أقرب وسيلة إلى نيل مرادهم هو نشر التعطيل بين المسلمين »[1] .

ويكشف المستر جب المستشرق المعروف الغطاء عن الأغراض الخفية للمدارس التبشيرية فيقول :

---

(١) انظر الاتجاهات الحديثة في الإسلام للأستاذ محمد بهجت الأثري ١٩ ـ ٢٠ .

« في أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر وصلت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بإنماء التعليم العلماني بإشراف الإنجليز في مصر والهند ، ولعل هناك نصيباً من الحق في التهمة التي ترمي بها هذه المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ ... وأنها ربت في التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة إلى حدّ ما في أوطانهم الأصلية . وبأضعافها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ أدخلت في بناء المجتمع الإسلامي أداة هدم وقطعت بعض الأواصر التي كانت تحفظ تماسكه »[1] .

وليس الصراع الفكري بين الحضارة الأوروبية والحضارة الإسلامية مقتصراً على ما ذكرنا بل هناك لون آخر على مستوى أعلى رصد لإعلان الحرب على الحضارة الإسلامية ، ذلك اللون المتمثل في الحركة الاستشراقية ، تلك الحركة تلبس في ظاهرها لباس المعرفة ، وخدمة التراث العربي ، وفي باطنها داء الحقد الأسود على الإسلام وحضارته ، وبث السموم الفكرية في جسمه بعد أن فتن بهم جيل من أبناء الأمة العربية يرون في ترديد أسمائهم عنوان الثقافة والفكر ، والتمدين والحضارة .

ومن ألوان هذا الصراع تلك الأفكار التي شجعوا الجهلة على دسها في الدين مثل تعظيم القبور ، والشفاعة بالموتى ، وحلقات الرقص الديني باسم الذكر والعبادة والأساطير الخيالية التي تدعو إلى الكسل والركون مما دفع الشيخ محمد بن عبد الوهاب باعلان الثورة الإصلاحية لإرجاع الناس إلى عبادة الله الواحد ، وانتشالهم من براثن

---

(١) المرجع نفسه والصفحة .

هذه الخرافات ، ولكن السياسة العثمانية وقفت في طريقها ولولا ذلك كما يقول الدكتور طه حسين في كتابه « الحياة الأدبية في الجزيرة العربية » لكان من المرجو جداً أن يوحّد هذا المذهب كلمة العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة كما وحّد ظهور الإسلام كلمتهم في القرن الأول » (١) .

مع هذا الصراع العنيف فإن الإسلام بقي قوة لا يمكن القضاء عليها بسهولة لأنه دين الله ، وكتابه تكفل الله بحفظه إلى يوم الدين .

وهذه الحرب العوان نبهت الأذهان إلى الفناء الذي يراد بالأمة الإسلامية مما هيأ النفوس إلى قيام حركة إصلاحية تواجه هذا الخطر الداهم ، وهذه الآفات التي أوشكت أن تحطم جسم الأمة الإسلامية وتسلبه روحه الطاهرة النظيفة حتى لا تعود له الحياة .

وكان رواد هذه الحركة الإصلاحية ينادون بالرجوع إلى القرآن ، وبالوحدة الإسلامية وتلاقت الأصوات أصوات الإصلاح في أنحاء العالم الإسلامي لتصيح في المسلمين أن يهبوا من نومهم .

ظهر دعاة مصلحون على رأسهم السيد سيد أحمد خان ، وسيد أمير علي ومحمد إقبال ، وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وابن باديس دعاة يمثلون شرق العالم الإسلامي وغربه .

وقد استجاب لهذه الدعوة شباب الأمة الإسلامية مما أذهل الغربيين الذين ظنوا أنهم بالاستعمار أماتوا روح الأمة ، وقضوا على حضارة الإسلام .

يصور هذا المعنى المستشرق (ماسينون) فيقول :

---

(١) انظر الاتجاهات الحديثة ٢٥ .

« إن هناك ظاهرة كثيراً ما يهملها الباحثون ، وهي أن الحركات الإسلامية تستعد في خفاء وصمت ، وتندلع فجأة دون أن يسبقها نذير يمكن أن يرى ، وبعبارة اصطلاحية أكثر دقة نستطيع تحليل ما يقع بأن أول الأدوار هو دور النداء الباطن الذي يهيب بالضمير الاجتماعي وإن ظل في حالة هدوء ظاهري .... وإذا أنضج هذا النداء تبعه الدور الثاني توّا وهو دور الدعوة لاسترداد ما تعطل من حقوق الشريعة ، وسبيل ذلك الجهاد وهذا هو المفهوم الذي يصدق على جميع الحركات عند مختلف الجماعات ، وفي مختلف الأوقات ».

وامتد سير الإصلاح إلى أواخر قرننا الرابع عشر الهجري الذي آذن بالرحيل لنستقبل القرن الخامس عشر الهجري في ظل صحوة الإسلام التي أشرقت في أرجاء العالم الإسلامي ، والتي تأمل أن يجني الإسلام من ثمارها في القرن الجديد ما يدفعه إلى الأمام ، وما يحقق رسالته في الوجود .

ونخلص من هذه الدراسة التي دارت حول مواجهة الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية بأن الحضارة الإسلامية اعتراها الوهن ، واستبد بها الضعف في القرنين الماضيين ، ولكن بفضل رجال الدعوة المخلصين ظلت تحتفظ بالحياة دون أن تفرض سلطانها على أتباعها لشراسة الحضارة الغربية ، وافتنان الناس بها .

الحضارة الغربية :

وأما الحضارة الغربية فإننا إذا سلطنا عليها الضوء لانكشف الكثير من عوارها .

انها حضارة تراعي جانب الإنسان المادي ، وتهمل الجانب

الإنساني منه ، حولت الإنسان وحش غابة لا يهمه إلا أن يملأ بطنه بالطعام ، وفي سبيل ذلك تنتهك مقاييس العدالة ، وتتحطم موازين الحق .

يقول الدكتور الكسيس كاريل في كتابه « الإنسان ذلك المجهول »[1] مفنّداً هذه الحضارة الغربية المادية معلناً أنها لم تسعد الإنسان بل زادته شقاء وانهياراً :

« يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء ولكن الواقع هو عكس ذلك فهو غريب في العالم الذي ابتدعه ، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته ، ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية .... اننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً ، إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ...

وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدنيات التي سبقتها أوجدت أحوالاً معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة ...

إن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولّد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية »[2] .

ولا يظل في ذكر الجوانب السيئة لهذه المدنية الغربية والتي أرهقت الغرب كما أرهقت الشرق المفتون بها .

---

(١) ترجمة شفيق أسعد فريد نشر مكتبة المعارف ـ بيروت .

(٢) نقلاً عن كتاب « المستقبل لهذا الدين » للشهيد سيد قطب .

والحضارة الشرقية التي تمثلها الكتلة الشرقية الشيوعية لا تخرج عن إطار الحضارة الغربية بل هي أكثر سوءاً منها فليس للإنسان فيها كرامة لأنه مجرد ترس في آلة .

إذاً إذا أردنا أن ننقذ الإنسانية من هذا التحلل الديني ، من هذه الفوضى الضاربة أطنابها علينا أن ندعو العالم إلى الحضارة الإسلامية لأنها الدواء الناجع لأمراض الحضارة المادية :

« ان الإسلام في أوقاتنا هذه لفي حاجة إلى نهضة جديدة ، وان إنتاج المفكرين والمحققين من أسلافنا القدامى لم يعد ذا غناء وكفاية لأن الدنيا قد بعدت في سيرها إلى الأمام ، ولم يعد من الممكن أن نرجع بها القهقرى إلى المراحل التي جاوزتها قبل ستمائة سنة وأن الزعامة في ميدان العلم والعمل اليوم لا ريب مكفولة لمن يتقدّم بالدنيا إلى الأمام لا لمن يجذبها إلى الوراء ، فإذا كان الإسلام يريد أن يعود إلى مكانته من سيادة العالم فلا سبيل إليه إلاّ أن ينبغ في المسلمين رجال من أصحاب الفكر والتحقيق يهدمون بقوة فكرهم ونظرهم وبحثهم صرح الحضارة الغربية ... ويبنون بعد ذلك نظاماً للفلسفة جديداً منتزعاً من الفكر الإسلامي الخالص ، ويرفعون قواعد علوم طبيعية جديدة تنهض عمارتها على الخطوط المرسومة في القرآن الكريم »[1] .

وبعد

فإن مستقبل الإسلام بدأت تباشيره في الأفق تلوح ، لأن الحضارة الغربية فشلت في إعطاء الإنسان سكينة النفس ، وطمأنينة القلب فشلت في أن ترد له كرامته المفقودة ، وحياته الروحية الموءودة .

---

(١) نحن والحضارة الغربية ٢٤ .

وليس هناك بديل لهذه الحضارة غير الإسلام ، الإسلام الذي جاء لإسعاد البشرية ، الإسلام الذي قال عنه كارليل :

« لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن أن دين الإسلام كفر ، وأن محمداً خداع غرور وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة .

فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ، ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر أكذوبة وخدعة ؟

أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ، فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج .. فما الناس إلاّ بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخلق »(١) .

وقال تولستوي الروسي :

« ومما لا ريب فيه أن النبي محمدا كان من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام وتؤثر عيشة الزهد ، ومنعها من سفك الدماء ، وتقديم الضحايا بالبشرية وفتح لها طريق الرقي والمدنية ، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلاّ شخص أوتي قوة ، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام »(٢) .

وقبل أن أختم هذا البحث أحب أن أهيب بالفكر الإسلامي أن

---

(١) انظر عظماؤنا في التاريخ ٥٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٥٤ .

يتقدم من جديد ليحمل الراية في ميدان هذه الحياة ، ويتبنى فلسفة مميزة تزيل التعارض « بين العلم الذي يتقدم بخطوات كخطوات الجبابرة ، وقيمة الإنسان التي تنهار بوثبات الشياطين »[1] .

ان الشباب في الحضارة الغربية حشت جيوبهم بالمال ، وامتلأت بطونهم بالطعام ، ولكنهم يفقدون حياة الروح ، لأن الكنيسة لم تستطع أن تمدهم منها بما يزيل الحيرة ، ويبدد الشك ، وليس أمامهم منزوحة إلاّ الهروب من الحياة بالعقاقير تارة وباليوجا تارة ، وبالتمرد حيناً وبالشذوذ الجنسي حيناً آخر ، ولا سلامة لهذا الشباب إلا بالتربية الإسلامية فعلى رجال الفكر الإسلامي التبعة تبعة نشر الإسلام بما يتفق مع طبيعة العصر من التسلح بالمعرفة والتزود بالثقافة والإخلاص للإسلام .

د . عبد العال سالم علي مكرم

(١) تجديد الفكر العربي ٢٨٧ .

مراجع البحث

١ ـ آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ـ لعمار طالبي ـ الشركة الوطنية ـ الجزائر .

٢ ـ الإبانة عن أصول الديانة :
لأبي الحسن الأشعري . تحقيق د . فوقية حسين
توزيع دار الأنصار ـ القاهرة .

٣ ـ الاتجاهات الحديثة في الإسلام للأستاذ محمد بهجت الأثري ـ المطبعة السلفية .

٤ ـ الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ـ طبع الحلبي ـ طبعة ثالثة .

٥ ـ أثر القرآن في تطور النقد العربي د . محمد زغلول سلام / مطبعة دار المعارف .

٦ ـ الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين ـ للشيخ محمد الغزالي ـ دار البيان ـ الكويت .

٧ ـ الإسلام والحضارة العربية ـ تأليف محمد كرد علي ـ طبعة ثالثة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة .

٨ ـ الإسلام والطاقات المعطلة ـ الشيخ محمد الغزالي ـ طبعة ثالثة ـ دار الكتب الحديثة .

٩ ـ الإسلام والمرأة المعاصرة ـ للأستاذ بهي الخولي ـ دار القلم .

١٠ ـ أقيسة النبيّ المصطفى محمد ﷺ ـ تصنيف الإمام ناصح

الدين عبد الرحمن الأنصاري المعروف بابن الحنبلي المتوفى سنة ٥٥٤ هـ ـ تحقيق أحمد حسن جابر ، علي أحمد الخطيب.
١١ ـ بين الدين والمدنية لأبي الحسن علي الحسني النّدوي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .
١٢ ـ تجديد الفكر العربي للدكتور زكي نجيب محمود ـ دار الشروق ـ بيروت .
١٣ ـ تدوين الدستور لأبي علي المودودي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
١٤ ـ تراث الإسلام ـ تأليف ـ شاخت وبوزورت ـ ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، وإحسان صدقي ـ سلسلة عالم المعرفة ـ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت .
١٥ ـ التفسير والمفسرون تأليف الدكتور محمد حسين الذهبي ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة .
١٦ ـ تقييد العلم لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، تحقيق يوسف الحسن ـ نشر دار إحياء السنة النبوية .
١٧ ـ ابن تيمية : حياته وعصره ـ آراؤه وفقهه : تأليف الشيخ محمد أبي زهرة ـ طبع ونشر دار الفكر العربي .
١٨ ـ ابن حزم : تأليف الشيخ محمد أبي زهرة طبعة ثانية ـ مطبعة أحمد محمد .
١٩ ـ خصائص التصور الإسلامي للشهيد سيد قطب ـ دار الشروق ـ بيروت .
٢٠ ـ رسائل الجاحظ ـ تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون .
٢١ ـ روح المعاني (في تفسير القرآن) ـ إدارة الطباعة المنيرية .

٢٢ ـ سنن أبي داود .
٢٣ ـ عظماؤنا في التاريخ : للدكتور مصطفى السباعي ـ دار البشير ـ بيروت .
٢٤ ـ علم أصول الفقه تأليف الشيخ عبد الوهاب خلاف ـ طبعة ثامنة ـ الدار الكويتية للطباعة والنشر .
٢٥ ـ أبو علي الفارسي : للدكتور عبد الفتاح شلبي ـ مطبعة نهضة مصر .
٢٦ ـ الفلسفة القرآنية : تأليف عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .
٢٧ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري ـ المطبعة الأدبية طبعة أولى سنة ١٣١٧ هـ .
٢٨ ـ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : تأليف الدكتور عبد العال سالم مكرم ـ دار المعارف بالقاهرة طبعة أولى ـ ومؤسسة علي جراح الصباح ـ الكويت ـ طبعة ثانية .
٢٩ ـ القرآن نظرية عصرية جديدة بأقلام مجموعة من الكتاب ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
٣٠ ـ الكامل للمبرد ـ طبع نهضة مصر .
٣١ ـ لسان العرب لابن منظور .
٣٢ ـ اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع للإمام أبي الحسن الأشعري تحقيق الدكتور حمود عزابة .
٣٣ ـ مالك : للشيخ محمد أبي زهرة ـ دار الفكر العربي .
٣٤ ـ المال والحكم في الإسلام للشهيد عبد القادر عودة ـ الدار السعودية للنشر والتوزيع .

٣٥ ـ مجلة العربي ـ تصدرها وزارة الإعلام بالكويت .
٣٦ ـ المسائل لابن قتيبة ـ مصور رقم ٢٠٩٦٧ ـ مكتبة جامعة القاهرة .
٣٧ ـ المستقبل لهذا الدين للشهيد سيد قطب ـ مكتبة وهبة .
٣٨ ـ مشكلات القرآن للإمام محمد عبده ـ دار مكتبة الحياة ، بيروت.
٣٩ ـ المصاحف لابن أبي داود ـ تحقيق الدكتور آرثر جفري ـ المطبعة الرحمانية ـ طبعة أولى .
٤٠ ـ معترك القرآن في إعجاز القرآن للإمام جلال الدين السيوطي ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة .
٤١ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الشعب .
٤٢ ـ مقام العقل عند العرب ـ للأستاذ قدري حافظ طوقان ـ دار المعارف ـ بمصر .
٤٣ ـ مقدمة ابن خلدون ـ دار الشعب .
٤٤ ـ مقدمتان في علوم القرآن : وهما مقدمة (١) كتاب المباني لمؤلف مجهول في القرن الخامس الهجري (٢) مقدمة ابن عطية تحقيق آرثر جفري ـ مطبعة السنة المحمدية .
٤٥ ـ من الدراسات الإسلامية ـ للدكتور عبد العال سالم مكرم ـ مؤسسة علي جراح الصباح ـ الكويت .
٤٦ ـ المنقذ من الضلال للإمام الغزالي ـ مكتبة الجندي ـ بمصر .
٤٧ ـ موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ـ لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق محمد محيي الدين ـ محمد حامد النقي ـ مطبعة السنة المحمدية .

٤٨ ـ نحن والحضارة الغربية ـ لابن الأعلى المودودي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .
٤٩ ـ نزهة الألبا ـ عبد الرحمن بن محمد الأنباري ـ طبع سنة ١٢٩٤ هـ .
٥٠ ـ نظرية الإسلام وهدية في السياسة والقانون والدستور – مؤسسة الرسالة – بيروت .
٥١ ـ وحي القلم ـ مصطفى صادق الرافعي ـ الطبعة الثامنة ـ دار الكتاب العربي .

المحتويات